فريد مخلوف

مذكرات صحفي

بين الامس واليوم

١٩٤٧

مذكرات صحفي

بين الأمس واليوم

بقلم

فريد مخلوف

الطبعة الاولى

ثمن النسخة ٥ ليرات سورية

كتب للمؤلف :

اليقظة

الثورة

الانسان الجديد

ابن الشعب

احلام الصيف

الخلاص

الانطلاق

رحلات و مشاهد في لبنان

فضائح الدعاية الالمانية في الشرق

العرب و الحرب الحاضرة

ايطاليا و القضية العربية

سوريا كما رأيتها

لبنان كم

قال لي الوجيه البيروتي الكريم عمر بك بيهم مرة : (ان اكره شيء عليّ ان اجلس تحت يد الحلاق او امام عدسة المصور)! وقد كان اكره شيء عليّ ان اكون مؤلفاً اديباً فيسألني الناس : ماذا تشتغل ؟ فلا اعرف بماذا اجيبهم ! فليس الادب بمهنة من المهن ولا التأليف بصنعة من الصنائع ... وحينئذ قررت ان اكون صحفياً لتصير لي صفة في دنيا السؤالات فلا اتلعثم بالجواب! فكما ان هناك نجارين وخياطين وحدادين وبائعي خضرة و (عرقسوسانيـة) فكذلك يوجد صحفيون ! ! اما الادباء والمؤلفون فما هو تعريفهم في عالم المادة او المهن او عند جباة الضرائب مثلاً ؟ ؟ ...

وحكايتي في الصحافة مثل حكاية (سقا النجف) التي قصها عليّ الصديق الاستاذ احمد الصافي النجفي ! قيل : ان نجفياً فقيراً تناولته ايدي البطالة مرة فبقي مدة لا يجد له عملاً حتى ضايقته الحاجة والعوز . فقالت له زوجته يوماً الى متى تبقى عاطلاً وقد كاد

الجوع يدركنا ، افلا تشتغل ؟ فقال وماذا تريدين ان اشتغل وانا لا املك رأسمالاً اشغله ولا اجد شغلاً عند الآخرين ؟ فاجابت: اعمل مثل جارنا اشتغل سقّا ! فراقت الفكرة للرجل واطاع زوجته - كما هي عادة الرجال في اطاعة زوجاتهم ! - .. ولما كان الرجل لا يملك مستلزمات هذه الصناعة الحديثة فقد استأجر حماراً وضرفاً ودلواً وحبلاً . ولما كانت الآبار في النجف عميقة جداً والرجل لا يقوى على العمل الشاق فقد استأجر ايضاً من ينشل له الماء من البئر ... وهكذا فقد راح يعمل مجتهداً ينقل الماء على ظهر الحمار ويبيعه للطالبين حتى اذا جاء آخر النهار، ودفع ما يتوجب عليه من اجرة الحمار والضرف والدلو والحبل ونشل الماء لم يبق لنفسه شيء ! الى ان التقى به جار له يوماً فقال له : لقد سررنا جداً لعملك وانا ندعو لك بالتوفيق والاستمرار في هذا العمل ! فقال له السقّا البائس : ولكنني لا اربح من عملي شيئاً لان ما أجمعه لا يكفي اجرة الحمار والضرف والدلو ! فسأله الجار مستغرباً : وماذا تستفيد من هذا العذاب اذن ؟ فقال صاحبنا :

استفيد ان ترى امرأتي انني اشتغل ويرى الناس انني صاحب صنعة ! ...

لقد اردت ان اعزي نفسي بكلام سمعته من احد اصدقائي المخلصين جودت بك المطران اذ سألني مرة: عساك تكون موفقاً في عملك ؟ فقلت له : اذا كنت تعني التوفيق المادي فلا . هناك موفقون امثال حنا غصن وسعيد فريحه او على الاقل حبيب كحاله ! فقال : (اليس هذا غريباً لانك تخدم المبادىء لا الاشخاص) ؟ ولست ادري حتى الآن اذا كان هذا الكلام من الصديق جودت بك هو على سبيل الحقيقة او جبر الخواطر ، لان الواقع انني حتى اليوم لا ازال اعمل لدفع اجرة الحمار والضرف والدلو ، اما اجري ففي ذمة بعض اصحاب الصحف ومعاملتهم « الطيبة » ، واما الرزق فعلى الله الكريم ! !

* * *

واني لمسرور من نفسي اذ لم آخذ اي درس من الذين عملت معهم في بداية عملي الصحفي مما يدل على طبعي السميك ... او كما يقول بعض معارفي من صغار النفوس : ان فريداً عبقري

ولكنه « غشيم » ! وهم يقصدون انني لا استغل او لا اعرف ان استغل موهبة الكتابة ، ويعتقدون ان العبقرية لا تكتمل الا اذا كان الصحفي خبيراً في ابتزاز مال الناس ! ...

ان الصحافة في نظر البعض هي الذبذبة بعينها . واذكر اول عدد حررت فيه من احدى الجرائد الاسبوعية ! لقد ارادني صاحب تلك الصحيفة على ان امتدح في نفس العدد شخصين يمثلان طرفي السياسة في سوريا : احدهما يمثل الوطنية السلبية هو فخامة شكري بك القوتلي ، وآخر طواه الموت اليوم يمثل الفكرة التعاونية مع المنتدبين . وكان يعد توفيقي في كتابة الكلمتين في عدد واحد نهاية العبقرية التي لم يتوصل اليها اريسطو في زمانه ... ولما اظهرت قرفي من هذه الذبذبة واصراري على انتهاج الخطة التي تتفق مع مبدئي الوطني المعروف ، كادت تقطع علاقاتي الدبلوماسية وغير الدبلوماسية معه ، لولا ان الهمه الله خطة التراجع ، والهمني خطة الصبر والتريث ...

وقدبقيت العلاقات متوترة بيني وبين صاحبنا الى ان اجتمع مرة بالوطني الكريم مظهر باشا رسلان . فاذا به يعود الي وطنياً

متحمساً . وانا رجل اؤمن بمنطق الباشا وقوة اقناعه وحجته السليمة ... انما اعتقد ان الفضل في حماس صاحبنا يعود الى شيء غير المنطق وقوة الاقناع والحجة السليمة ! هو شيء عرفه النبي العربي الكريم عندما قال : (داروا سفهاءكم) ! وقد كان ! ؟

ولقد كان صاحبنا يحفظ جملاً معينة يستعملها كلازمة في صحيفته ، ولا يزال بعضها الى اليوم يظهر في بعض الصحف ، ويعد رأسمالاً كبيراً لها ، كهذه الجمل مثلاً تأتي في آخر المقال : (للبحث صلة) ، (البقية تأتي) ، (التتمة في العدد القادم) ، (ولكل حادث حديث) ، (والله من وراء القصد) ، (وسنوافي القراء بما يجد في هذه القضية) ، (ونكتفي الان بذلك حرصاً على سلامة التحقيق) الى ما شاكل ذلك من الجمل التي يعرف القصد منها وتغني عن التصريح ... ؟

انني اعترف بانه اذا كانت هذه هي الصحافة واذا كان القراء لا يشجعونها الا خوفاً مما تبطن تلك الجمل فانا اسوأ صحفي عرفه التاريخ باستثناء اصحاب (الطليعة) في دمشق الذين طووا الصحيفة وكسروا القلم ولم يكن عمر طليعتهم قد تجاوز سنة واحدة

برغم ما احاطوها به من العناية والاتقان !

انني لم انجح في هذا النوع من الصحافة لانني لم اكن اذكر وزير الاشغال العامة مثلاً الا اذا لقبته بوزير البحص والزفت والكفاية... او وزير العدل الا اذا كنيته بوزير القانون والدربكة ... وقس على ذلك مما كان يكسبني تصفيق القراء وغضب الوزراء وملاحقة اصحاب الديون الذين لا يحترمون العباقرة المفلسين من امثالي ...؟

* * *

لقد كانت مهمة المديح الاجوف اشق مهمة عندي ، لا لانها تنطوي على الباطل فقط ، بل لانها تنطوي على الهزء بالقراء والسخرية بافهام الجمهور ... هناك مثل انكليزي يقول : « اذا خدعتني اول مرة اكون انا حماراً اما اذا حاولت ان تخدعني مرة ثانية فتكون انت حماراً » ! ان الصحافة على هذا القياس تحتوي على الكثير من الحمير الذين يحاولون ان يخدعوا القراء الوف المرات ... !

واقول بصراحة انني رشحت انا نفسي لهذا المنصب لولا

اني كنت اتراجع في الوقت المناسب... فالحمد لله انني بقيت من فصيلة الآدميين برغم المغريات العديدة والاصطدام باغراض صاحب الامتياز والتضييق على الحرية الصحفية !

لقد حاولت جهدي ان اقنع صاحب تلك الصحيفة الاسبوعية بان التجرد الصحفي ينفعه بطريق غير مباشر من حيث ذيوع صحيفته وانتشارها وتأييد الناس لها اكثر من انتفاعه من افراد معدودين عن طريق مدحهم بلا مناسبة وانه اذا كان لا بد من توجيه الثناء الى الافراد فليكن باقتصاد وتحفظ وبترفع عن المدح الرخيص حتى تكون لكلمة الثناء قيمة ولكن نصائحي كانت تذهب كورقة غير رابحة في اليانصيب ... !

ومما يدل على سخف صاحبنا انه اذا اراد مدح هيئة حكومية في مركز قضاء مثلاً فهو يبدأ بمدح القائمقام وسكرتيره « وبلانطونه » ... وقائد فصيل الدرك وجميع رؤساء مخافر الفصيل وبعض الجنود ايضاً . ولعله يشعر بحاجة لكي يأتي على ذكر قهواتي السراي كذلك ؟ ؟

* * *

واني لاضحك من خطة المدح الاجوف هذه التي تظهر في رسائل الملحقات في الصحف . فاذا اطلع قارئ على هذه الرسائل اعتقد ان الاقضية جنة الله في خلقه . فكل قائمقام هو الاداري الكبير وكل حاكم صلح هو رب العدل، وكل قائد فصيل هو سيد الامن ، وكل ضريبة تجبى بسهولة وبكل انسانية ولطف ، فلا تقاعس ولا تهاون ولا محاباة ولا وقوعات ولا ضغط...

واني لاذكر حادثاً مضحكاً جرى لي مع احدالمحافظين. فقد ذهبت لمقابلته وكنت انوي اخذ بعض المعلومات منه لاذكرهافي رسالة الى احدى الصحف . فقال: ولم هذهالمعلومات؟ قل انك تجولت في المحافظة فوجدت الحالة فيهاعلى ما يرام ! فقلت له : ولكن الحاله قد تكون ليست على ما يرام ، فربما كان هناك اشياء تستدعي الانتقاد والفات نظر المسؤولين اليها ! فقال : اذا كانت ليست على ما يرام ، فاعملها من عندك على ما يرام ، وبهذا تكون جعلتني ممنوناً لانك كصحفي تساعدني على

مهمتي الادارية ، اذ يجب الابتعاد عن النقد والشغب ... !

ولست الوم اليوم هذا المحافظ فقد عوده مراسلو الصحف ان يموهوا الحقائق ، فلا يكتبون الا ما يرضيه وامثاله ! اما الرأي العام في الملحقات فهو في معزل عن الكتابة او الاهتمام لانه مضغوط عليه وغير مكتمل النضوج والتكوين ... !

وقد كانت اول رسالة نشرتها مفاجأة للقراء ! فقد ظهر فيها ان القائمقام لم يكن ذلك الاداري الكبير حتى ولا الصغير ، وان البلدية لم تكن مثالية ، وان حاكم صلح القضاء لم يكن غير مرتش حقير يسخر القانون لغير ما وضع له وان الرقابة على الدرك غير متوفرة ، وان الامراض تفتك بصحة الاهلين ، وهكذا ...

ولا اقول ان واجب على الصحافة مقاطعة السلطات بل على العكس انه واجب عليها معاونة السلطة وتقريب الشقة بينها وبين الشعب والتعويد على النظام . ولكن لا بد للصحافة حتى تصل الى هذه الغاية وتكسب احترام القراء من ان تنتقد بصراحة وتفضح العيوب ، وتنبه الى مواطن التقصير والضعف ... !

* * *

واعود الى تلك الحقبة الأولى من اشتغالي بالصحافة ، نشرت مرة قصيدة انتقادية هزلية ، كان مما جاء فيها :

وان قلت متنا جهّز (القوم) دفننا

وقالوا لحفار القبور (عميد) !

وكنت اقصد بالقوم جماعة الانتداب . وبالعميد المفوض السامي الافرنسي كما هو ظاهر ، فاستدعاني (القومندان كوله) مدير المطبوعات حينئذ والحاكم بامره في سوريا ، فثار علي ثورة عنيفة قابلتها ببرود . وبعد ان افرغ ما في جعبته من تهديد ووعيد ـ لا وعد ...؟ ـ سألته عن سبب تلك الثورة ، فقال: او تتجاهل؟ اتصل بك الجرأة الى هذا الحد الى ان تنعت المفوض السامي بحفار القبور ؟ أليس للمفوض غير هذه الوظيفة في سوريا ؟...

ولما وجدت (الحديدة حامية) كما يقولون ، فتقت لي الحيلة مخرجاً من تلك الورطة ، فقلت لكوله : ان الذين قد ترجموا القصيدة فسروها خطأ ، فانا قصدت بكلمة حفار القبور لطفي بك الحفار ،

وبكلمة العميد الزعيم . فسألني ولماذا لم تقل الزعيم بدلاً من العميد حتى لا يحدث التباس ؟ فقلت : لان القافية دالية فاذا قلت زعيم اخالف اصول الشعر العربي ! ! ..فقال : انني اعرف انك كاذب في هذا التفسير فانت لم تقصد غير المفوض السامي وهذا ظاهر بالقياس لكتاباتك وخطتك السياسية ، ولكنني قد اعجبت بسرعة خاطرك ولذلك فاننا نقف عند هذا الحد ! ولكني ارجوك ان تقبل نصيحتي وتتذكر دائماً ان المفوض السامي ليس حفار قبور ! !

ولكن ، هل قبلت فيما بعد نصيحة كوله وهل وقفت عند ذلك الحد ؟ ـ لا اظن ...

* * *

واني اذكر بعض هذه الحوادث للسلوى لما فيهامن حسن التخلص لا المراوغة التي لا تستدعي الافتخار والاعتزاز .

اقيمت مرة علي دعوى بمادة قدح وذم من قبل احد رؤساء العهود الماضية ! وقد حضرت الاستنطاق ، وعينت جلسة للنظر في القضية . وقد علمت ان الدفاع الجدى القانوني لن ينجيني باعتبار إن الذم ظاهر فيما كتبت ...

وفي الجلسة سألني الرئيس «وما لنا الان ولذكر الاسماء ؟»:
ما اسمك ؟ قلت له: فلان ! قال: ما هو عملك؟ قلت: تاجر كلام اي صحافي ! قال : وكم عمرك ؟ قلت : عشرون سنة ! قال. ولماذا قلت في الاستنطاق عمرك ثلاثون! قلت. في الاستنطاق لم يكن يوجد نساء! قال . وما علاقة النساء في الموضوع ؟ قلت . اذا سمعن ان عمري عشرون قلن مسكين لا يزال في اول شبابه ، الله يحنن قلب الحاكم عليه ! اما اذا سمعن ان عمري ثلاثون قلن قريباً «يولي » الله يقسي قلب الحاكم عليه ! قال . لماذا كتبت هذا المقال بحق شخصية مسؤولة ، وانت صحافي والمفروض في الصحافي ان يعرف بان مثل هذا المقال يجازي عليه القانون ؟ ! قلت . كتبته لانني كنت سكراناً قال . وهل تشرب كثيراً ؟ قلت . حسب الظروف ! قال . كيف يعني ؟ قلت . اذا كان الدفع علي «لا تشد ايدك »، اما اذا كان الدفع على غيري « لا تعد اقداح » !

وبعد محاكمة طويلة من هذا النوع قال . لقد حكمتك

المحكمة باسبوعين حبس مؤجل التنفيذ وبعشر ليرات جزاء نقدياً. قلت ولكن ما معي ادفع ! قال لماذا ؟ قلت. تعرف من نفسك ؟ قال . كيف ؟ قلت . كم مضى عليك وانت مشترك في الجريدة ؟ قال . سنتان . قلت . وماذا دفعت ؟ قال . ما جاءني مندوب من قبلكم ؟ قلت له خير انشاء الله الان انا اطالبك ، ادفع !

وقد دفع ... !

وبعد يومين التقيت برئيس المحكمة نفسه صدفة في ساحة المرجة فقال ضاحكاً . لو كنت عارفاً انك ستدفعني الغرامة كنت حكمتك بدل العشر ليرات ليرتين ! ؟ ...

* * *

ان نجاحي في صد التيارات الرجعية السخيفة وتوفقي في بعض ما كنت انفرد في كتابته غير خاضع « لتوجيهات » صاحب تلك الصحيفة الاسبوعية ونكاته الغليظة المتكلفة البعيدة عن الذوق والادب ، وانطلاقي احياناً في باب المداعبة الظريفة او الانتقاد العميق ، كل ذلك قد استدعى صاحب مجلة المضحك المبكي الى الالحاح بتكليفي التحرير في صحيفته ...

وكانت المضحك المبكي آنذاك تبهر الابصار ، ولم تكن ـ كما هي الآن ـ الوانا مصبوغة ليس فيها من الكاريكاتور سوى ماهو مذكور في شروط الاشتراك ... ؟ ولا غرابة في ذلك وقد كان الفنان الموهوب الكاريكاتوري بالسليقة السيد جوليان — او السيد خليل الاشقر رسام الصياد اليوم ؟ — هو رسامها ؟؟
والحق انني كنت انتظر كل شيء في حياتي الا ان اصبح محرراً في مجلة هزلية ؛ تلك اضحوكة الاضاحيك ومسخرة المساخر ؟؟ كانت ادارة المجلة في شارع يسمى « سوق التبن » — قبل ان يترقى هذا الشارع ويحمل اسماً محترماً ؟ — فهل وجودي في محلة تحمل اسم التبن الا دليلاً على اني كنت بحاجة الى شيء آخر مكمل للتبن جزاء لي على سوء اختياري ؟ ؟

لقد حذروني من الاشتغال مع صاحب تلك الصحيفة لسوء معاملته المادية ؛ ولم اكن اعتقد ان سوء المعاملة المادية معناه انه لن يكون هناك معاملة ابداً ... ؟ ؟ اوكما قال صديقي الرسام جوليان فيما بعد

عندما وقع الخلاف بيني وبين صاحب المضحك المبكي : (ان حبيب كحاله يريد ان يشغل فريداً بالعواطف ...) ؟ .

واعتقد ان هذا السبب نفسه هو الذي دعا السيد خليل الاشقر فيما بعد الى ان يرفض الاشتغال بالعواطف وينتقل الى بيروت ... !

* * *

ولا شك في ان الهزل يتضمن من المغزى السياسي والتأثير في النفس ما لا تتضمنه في كل حين الكتابة الجدية ... وانا لا انكر على صاحب المضحك المبكي مقدرته في هذا الباب ، وتمرنه الطويل على الترجمة والنقل والاقتباس بحيث ان الكتابة الهزلية اصبحت عنده شبه ملكة من الملكات مطبوعة في النفس ولو كانت محصورة ضمن نطاق لا تتعداه !

واذكر مقابلة جرت بيني وبين صحافي اجنبي كبير كان قد اطلع على المضحك المبكي في ذلك الوقت واعجب بها . فسألني كم كاتب فيها ؟ فقلت له : صاحبها وانا. فاستغرب جداً وقال: وكم يعطيك اجراً شهرياً ؟ قلت له : تفاهمنا على ثلاثين ليرة سورية

(وكان معاشاً اسمياً محترماً في ذلك الوقت) ! قال : ان الكاتب الهزلي الموفق عندنا يأخذ شهرياً ما يعادل ثلاثمائة ليرة سورية ! فضحكت وقلت له : يا سيدي رضيت بالثلاثين ليرة بشرط ان لا تبقى مقيدة بالدفتر ... ! !

تلك حكايتي في المضحك المبكي ! كنا نحاول اضحاك الناس ونبكي . ولم يعرف الناس بوجودي فيها الا بعد ان تركتها غير آسف ، وقرأ الناس خبر قطع علاقتي ، واعتقد انه لو كان حادث وفاة مثلاً لما ظفرت بخبر ، فقد جرت عادة بعض اصحاب الصحف ان لا يتذكروا المحرز الا عند خبر قطع العلاقة ! !

* * *

وما انا في السياسة غير غبي كبير طالما اعتبر السياسة مبدأ وفكرة ... كنت استغرب كيف يبدل الصحفي رأيه بين ليلة وضحاها كما يغير ثوبه ... هناك صحفيون كانوا يعرفون كيف يصبحون اثيرين عند جميع الحكومات ! فكان الصحفي منهم ينقلب من انتدابي الى وطني باسرع من الوقت الذي يحتاجه الانسان لخلع ثوبه وارتداء سواه ...

عندما استلم الوطنيون الحكم على اثر المعاهدة المعقودة مع فرنسا سنة ١٩٣٦ ، قلت في نفسي : هـذا هو الدور الذي كنت ارقبه لانزل الى ميدان الصحافة كصاحب جريدة حرّ غير خاضع للمؤثرات الخارجية او لرغبات صاحب الامتياز ... !

ولم يكن من الميسور لي ان اتشبث بالحصول على امتياز جديد ، فذهبت الى المرحوم فايز سلامة وطلبت اليه ان يؤجرني امتياز جريدته (الدفاع) لمدة سنتين . فأجابني الى طلبي وذهبنا الى كاتب العدل لعمل اتفاقية ـ تماماً كما يفعل اصحاب الاعمال المحترمون ! ـ ونظمنا اتفاقاً وقعناه ونحن بكامل الرشد والعقل السليم ...

واصدرت العدد الاول متوجاً بجملة جميع المخابرات المالية والتحريرية تكون باسم منشىء الجريدة ورئيس تحريرها وديكتاتورها الاوحد ... ولم ننس ان نضع شروطاً للاشتراك في سوريا ولبنان والهند والخليج الفارسي ... ووكلاء في جميع

عواصم الملحقات من بانياس على الحدود السورية ـ الفلطينية ـ اللبنانية حتى ابو كمال على الحدود السورية العراقية ، ونشرنا بياناً في العدد الاول اطول من شهر الصوم ضمناه خطتنا السياسية التي هي خطة الجرأة والكرامة والخبرة الطويلة ...

ولما كنت قد حفظت درساً عن اساتذتي الاولين بان مناصري الصحف قسمان : قسم يدفع عن رغبة وقسم عن رهبة، فقد رايت ان ابدأ خطة الارهاب بصاحب الامتياز نفسه ، فذكرت عن لسانه قصيدة هزلية منها هذا البيت مخاطباً به احد الوزراء :

رمضان عند الناس شهر واحد

وشهور عمري كلها رمضان

وكنت احسب ان صاحب الامتياز سيغضب ويثور فاذا به يلتقي بي في اليوم الثاني من صدور العدد والبشر يعلو وجهه ، وهو يقول لي : انا ممنونك يا اخي فريد ! فقلت له متعجباً : ممنون على ماذا ؟ فقال : لقد ذكرت للوزير اني طفران فارسل لي ظرفاً فيه مبلغ لا بأس به من المال ! هكذا ارجوك ان تكتب لا كتابة

فارغة ككتابة بعض المحررين ! ! ...

* * *

وقد ارسلت العدد لمن اتوسم بهم خيراً من الاصدقاء ولم انس ان اذكر ان من قبل عدداً واحداً عدّ مشتركاً ... فاذا عدد كبير من الاصدقاء يقبلها ، فرحت اعمل عملية ضرب وطرح فظهر لي انني استطيع بالاضافة الى اجرة الاعلانات ان اصبح صحفياً يشار اليه بالبنان ...

وبدأت رسائل الاعجاب ترد من الاصدقاء أما الجدير بالذكر انه لم يكن بينها رسالة واحدة تحتوي على حوالة بريدية .. ! فان بعض الناس يظنون ان الاعجاب هو خير مكافأة على الجهاد الصحفي ويدبرون سلفاً طريقة التهرب من دفع الاشتراك باعتبار ان لفظة اشتراك تعني « اشتراكية » بين حق صاحب الجريدة وتملص المشتركين !!

وبدأت الخطة الشعبية التي انتهجتها تثمر ثمرها برسائل المعجبين ؟ فظهرت الجريدة كاغرب صحيفة دونها التاريخ ... واذا قلت هذه مبالغة فنقول تاريخ الكونت دي طرازي عن

الصحافة العربية ! فلم يكن غريباً ان تشاهد في اعداد الجريدة دفاعاً عن (طنبرجي) مثلاً الى جانب حملة عنيفة على وزير ... ! وكانت حيرة عن اهداف الجريدة وغايتها. ولم يعرف احد المحتارين ان السبب الحقيقي لتلك الخطة الشاذة هو نقص في الفهم الصحفي جعلتنا كالغراب الذي اراد ان يتقلد مشية الحجل، او كالذي اسلم الظهر ومات العصر ، لا المسيح بقي « يتعرف » عليه ولا محمد « دري » فيه ...

* * *

وفي احد الايام جاءني صاحب الامتياز ورجاني ان انشر كلمة بالرد على حملة عنيفة شنتها (القبس) في ذلك الوقت على السيد خيرى عبد الهادي ... فقلت له : انني لا استطيع ان انشر الكلمة لانني لا اعرف خيري عبد الهادي ولا يهمني ان ادافع عنه ، ولا اريد ان اسخر جريدتي لخدمة الاشخاص ولا اقدر ان احكم اذا كانت المعلومات التي تذيعها (القبس) صحيحة ام لا ، لانني لست خبيراً مالياً ولم انتدب للتفتيش على اعمال السيد خيري عبد الهادي في المالية ...

ووقعت مشادة عنيفة بيني وبين صاحب الامتياز لم نحتج معها الى سحب السفراء... اذ رضيت ان انشر كلمة في الموضوع بشرط ان يكتبها هو ويوقعها بامضاء مستعار ... وهكذا نشرت الكلمة وفيها دفاع مجيد عن خيري عبد الهادي باعتباره الوطني النزيه الشريف المستقيم، وحملة على القبس باعتبارها الجريدة المستغلة التي تغتنم فرصة العهد الوطني لتوجه التهم الباطله الى الموظفين الشرفاء، بحجة انهم ضد الوطن وضد العهد ...

ورحت انتظر نتيجة هذه الخطة الحمقاء : ادافع عن رجل لا اعرفه واوجه التهم الى زميلة بما لا اعرفه ! وبعد يومين اذا بطلبات اشتراك عديدة تأتيني من موظفي المالية مع حوالات مالية حقيقية هذه المرة بقيمة الاشتراك وكلمات اعجاب بالجريدة ومنشئها الذي يدافع عن الحق بجرأة دن ان يخشى لومة لائم ... !

وهنا عرفت ان الخطة لم تكن حمقاء انما انا الاحمق اذ كنت اعتقد ان الجريدة تستطيع ان تعيش اتكالاً على المبدأ

القويم دون الاتكال على الاشخاص !! ... فكان اول درس تلقيته عملياً بفائدة الذبذبة وقلب الباطل حقاً والحق باطلاً ، وان ربك لغفور رحيم ...

* * *

ولم يكن شيء يحول بيني وبين قول ما اعتقدانه صواب، دون مواربة و اقامة وزن لاي اعتبار . فلم اكن اتحفظ في انتقاد السياسة الداخلية ، ولا في الحملة على الدسائس التي كان الاجنبي يحوكها لابطال المعاهدة وطعن الاستقلال في الصميم...

وشننت بصورة خاصة حملة عنيفة على الشركات الاستثمارية الاجنبية باعتبار ان الاستقلال الاقتصادي هو الدعامة الكبرى للاستقلال السياسي اذ لا يتم تطور صناعي في البلاد بدونه ... ورأيت بعض الصحف وقفت موقفاً مريباً من الشركات ، فكتبت كلمة تحت عنوان : (اسعار بيع الضمائر) قلت فيها انه كما يوجد للفجل والبصل ثمن، كذلك الضمائر فان لها ثمناً ايضاً، وبينما تدفعه كل شركة لبعض الصحف تحت ستار اجور اعلانات شهرياً..

وقد كان ذلك التشهير بعيداً عن اللياقة ولا ريب ، انما لم أكن اعتقد انه سيقيم اصحاب الجلالة الرابعة ويقعدهم ، سيما وان بعضهم نجله ونحترمه ولم نتعرض له بسوء ولم نأت على ذكره لا تصريحاً ولا تلميحاً ... فاذا مدير المطبوعات وقتئذ السيد باسيل مكرديج يستدعيني فذهبت لمقابلته في السراي...

استقبلني السيد باسيل بابتسامة خبيثة وراح يناقشني عن مشروعية اصداري للجريدة ! وعلمت ان تلك المناقشة ما هي الا اسلوب للتضليل، او لاخفاء اشياء يكتمها. وانا رجل اكره اللف والدوران فاردت الدخول رأساً الى جوهر الموضوع فقلت له : انا اعلم انك لم تستدعني لاجل هذا ، ولا اعلم اني قد اتيت ما يسيء ... ! سيما وان ماضي لا غبار عليه كما تعلم ، فقل على التحديد ماذا تريد ؟ ؟

وهنا انفجر السيد باسيل غاضباً وقال : يا اخي انا ما عندي شغل غير جريدتك ؟ كل عدد اضطر الى ترجمته من الفه الى يائه

حتى صرت اشتغل فيه ليلاً نهاراً .

ثم نهض الى خزانة ففتحها واخرج منها اعداد الجريدة ونشرها امامي على الطاوله وهنا لم اتمالك نفسي من الضحك اذ وجدتها كلها مؤشرا عليها بالقلم الاحمر ، ومكتوب على اكثر مواضيعها (للترجمة) ... ؟

قلت للسيد باسيل : اذا كنت قد ازعجتكم فانا مستعد ان اتوارى من الميدان لان ليس عندي من طرق المقاومة غير اخلاصي وبراءة ذمتي . وانا اعلم ان المنتدبين لا يزالون مهيمنين على الدوائر وهذه الدائرة منها فاذا كنتم تريدون ان تخلقوا امامي العراقيل ، فقل بصراحة لاطوي الجريدة وافتش عن عمل في صحيفة اخرى حيث اكون مقيداً بمنهاج صاحبها ...

فقال : كلا ، نحن لا نطلب منك الا ان تتقيد بالاوضاع الراهنة . وانت لا تحتاج الى من يعطيك دروساً في الصحافة لانك خبير فيها . واذا كنت تنقم على الشركات لانها لم تخصص لك اجور اعلانات فانا استطيع ان اخدمك من هذه الناحية ، اما الزملاء فانصحك ان لا تتعرض لهم بسوء ، لانهم تدخلوا لتعطيل

جريدتك ، والمرسوم معد للتعطيل ووقف بناء على رجاء بعض محبيك ...

وهنا تعزينا قليلاً اذ علمت انه لا يزال يوجد لنا محبون يعطفون على عملنا ويحولون دون التعطيل !...

* * *

وجاءنا الضغط من ناحية ثانية . فقد شاء النائب - يومئذ - الدكتور منير العجلاني ان يستأجر امتيازاً لاصدار جريدة كبرى فلم تحل في عينيه سوى دفاعنا المتواضعة ... وقد انخدع صاحب الامتياز بضخامة اسم الدكتور فجاء يجرب الضغط الادبي علي لاتنازل عن الامتياز ...

وكانت الجريدة قد ابتدأت تستنزف رأسمالي الحقير ... وتعبت من الضغط المتواصل الذي لا يمكنني من العمل ، فملت الى تسوية معقولة تحفظ بها حقوقي ! .

وعقد اجتماع خطير من الاقطاب او العظماء الثلاثة : الدكتور العجلاني والاستاذ سلامة والعبد الفقير ... فبدأ الاجتماع

بسؤال الدكتور عن صحة الجريدة اي مواردها المالية ، فاوضحنا له اننا قد صرفنا على الجريدة مبلغاً كبيراً من جيبنا ، انما لقاء ذلك يوجد عندي بعض مئات من المشتركين الذين لم يدفعوا بعد ... وعلى هذا فهناك شرط واحد لتنازلي عن حقوقي هو ان يدفع لي ما صرفته على الجريدة ويؤمن ارسال عدد منفرد الى مشتركي ...

اما الدكتور « العطوف » الرقيق القلب ، فقد القى محاضرة مؤداها انني طالما اخسر على الجريدة ولم اربح من ورائها مادياً ، فمن مصلحتي ان اتنازل له عنها مجاناً وذلك منعا لتورطي بخسارة اكبر ، ويعد قبوله الامتياز مني على هذا الاساس انسانية ورحمة لا توجد الا عند المختارين من عباده تعالى ...

اما انا فقد وجدت نفسي لا استحق تلك الانسانية النادرة والرحمة والعطف المأثور ، فقطعت المفاوضة وانسحبت ... !

* * *

ووجدت احسن حل ان اقوم بجولة في الملحقات للتعرف الى المناطق تاركاً الادارة والتحرير لموظفين اخترتهم من ذوي النشاط والسيرة الحسنة ... واصطحبت معي مندوباً لتحصيل

الاشتراكات ، وكان ذلك اول عهدي بالمندوبين !!

وحتى لااطيل الكلام عن المندوب، اوعلى الاصح، حتى لايجمعاني اطيل الكلام عنه فقد اكل ما حصله في الاسبوع الاول اكلاً حراماً فحرمت من « نزاهته » و «عفته » و « نشاطـه » وكان الله يحب المحسنين . . . !

واعود الى حكايتي مع مدير الادارة . فكنت قـد افهمتـه بان يرسل لي مخابرات الادارة يومياً لابقى على اتصال بالجريـدة . فكان يرسل الرزم ويكتب عليها اسمي مجـرداً من كل لقب الا من كلمة استاذ . فلما ارسلت اول حـوالة بريـدية للادارة ، جاءتني الرزمة فاذا عليها حضرة الاستاذ الكبير فريد بك مخلوف! وهكذا صرت اذا تأخرت بارسـال الدراهم يخـف اللقب شيئاً فشيئاً فمـن استاذ كبير الى استاذ ومن (بك) الى (افندي) الى (السيد) ثم الى الاسـم « حاف » حتى اذا ارسـلت دراهم عاد الى البـك والاستاذ الكبير . . .

اما التحرير فلا ادل على الفوضى فيه من كلمة قالها لي القائد الكبير ابراهيم بك قصاب حسن ، وكنت قد عرفتـه اول ما

عرفته في دير الزور، قال : (يا فريد انا معجب بجريدتك، ولكني لا اعرف لها مبدأ معيناً فآنا اراها متطرفة في التعصب القومي حتى تصبح وكأنها نازية ، وآنا تتطرف في المبدأ الشعبي حتى تصبح وكأنها شيوعية وآنا تقف موقفاً متزناً كاحسن ما تكون جريدة وطنية حرة !) . فضحكت واوضحت لابراهيم بك بان اللوم ليس علي ، انما هذه عبقرية المحرر جمعت مبادىء الدنيا في جريدة واحدة ، فكانما ربك لم يشأ ان يجعل الناس امة واحدة فجمع اختلافاتهم وتباين آرائهم في جريدة واحدة ...

وقد فرض حضرة المحرر سيطرته على الجريدة فاصبحت رسائلي نفسها تؤجل من عدد الى عدد. وصارت الجريدةمشحونة بآرائه القيمة ، ومقالاته الرائعة وتعليقاته «الطريفة» اما انا صاحب الجريدةومنشئها، فقداصبحت وظيفتي تفسير نتاج عبقريتهوايضاحه للناس اي انني اصبحت مترجماً لجريدتي انقل كلامها المكتوب باحرف عربية الى اللغة العربية ...!

* * *

واذكر حكاية لحسين باشا الاطرش الوجيه الدرزي

المعروف ، قال: كان احد القرويين البسطاء يسمع الناس اذا ارادوا ان ينعتوا احداً بان عقله كبير يقولون عنه ان رأسه كبير ... فرفع القروي رأسه مرة الى السماء وقال: يا رب كبر رأسي ! فاستجاب الله دعاءه وجعل رأسه يكبر حتى صار يوازي الجبل فلم يعد جسمه يستطيع ان يحمله ! فتضرع الى الله قائلاً : يارب صغّر رأسي ! فجعل رأسه يصغر حتى اصبح كرأس العصفور فلم يعد فيه دماغ يفكر ... حينئذ توسل الى الله قائلاً : يا رب لا تكبر رأسي ولا تصغره ارجعني كما كنت...

كذلك كان شأني . فانا بعد التجربة الفاشلة التي جربتها في اصدار (الدفاع) صرت اضرع الى الله واقول : يا رب اني اتوب على يديك بعد اليوم عن اصدار الصحف: يارب لا تكبرني حتى اصبح في صف كبار الزملاء ، ولا تصغرني حتى اصبح في صف المندوبين والجباة ، يا رب ارجعني كما كنت !؟

* * *

اما المشتركون فاني لا ازال استغرب كيف دفع قسم منهم قيمة الاشتراك ... ؟ وهذه الجملة يجب الا تجعل القارىء يعتقد

ان جميع المشتركين قد دفعوا . فقد قبض المندوب كثيراً من كلمات: (انا ما طلبتها) ! او (من كلفكم بارسالها ؟)! او (اناماعندي وقت للقراءة) ! او (انا لا اعرف القراءة ...) ! او (انا ادفع لصاحب الجريدة واريد ان اتشرف بمعرفته). واكون انازاهداً بالتشرف بمعرفة حضرته وراغباً في التشرف برؤية قيمةالاشتراك..

الخلاصة بعد ان عملت حساب الرحلة ونتيجة المقبوضات ونسبة الذين دفعوا للذين لم يدفعوا ، جاء حسابنا مطابقاً لحكاية ذلك الفلاح الايطالي الساذج الذي اتى الى معلم القريةوقال له : اكتب لي عريضة الى الباري تعالى عزّ وجل اطلب لي فيها مائة لير . فقال له المعلم : وباية واسطة ترسلها اليه تعالى ! فقال الفلاح : ارسلها بواسطة السنيور موسوليني ...

وبالطبع فان العريضة لم تصل الى الله تعالى بل الىموسوليني! فلما قرأها ضحك من سذاجة الايطالي وارسل اليه ستين ليرا فتلقاها الفلاح بدون اعتراض ، وبعد مرور سنة كاملة عاد الفلاحالى معلم المدرسة وقال اكتب لي عريضة الى الله تعالياطلب منه مائة لير . فقال المعلم : ترسلها بواسطة موسوليني طبعاً .

فأجاب الفلاح : كلاً ، ابداً . هذا « حرامي » خصم بالمائة اربعين ...؟

* * *

وفي ذات يوم جاءني نبأ تعطيل (الدفاع) ... فتنفست الصعداء ، كأنما ازيح عبء ثقيل عن كاهلي ووجدت في التعطيل فرصة لايقافها بعد ان عاشت سنة مليئة بالمآثر ، وخرجت منها صفر اليدين كما دخلت اليها وانا اردّد قول الشاعر :

على انني راضٍ بان احمل الهوى
واخلص منه لا عليّ ولا ليا

وكم ضحكت وانا في حلب عندما كنت اتلقى خبر البرقيات التي ارسلت من بعض الاصدقاء احتجاجاً على التعطيل ، وقد كان الاولى ان ارسل برقية شكر للحكومة التي اراحتني واراحت نفسها والناس ...

ولم اخف من التعطيل بقدر ما خفت من ان تفرج الحكومة عن الجريدة بسرعة وتضعني امام الامر الواقع فاضطر لاعادة اصدارها اذ ان كرامتي والرسالة التي كنت احملها كانت

تضطرني للصبر على المكاره ...

وكاد يحدث لي ما حدث لذلك المتشرد الذي ضاقت به سبل العيش فرأى ان افضل حلّ ان يعمل مخالفة حكم عليه من اجلها عشرة ايام بالسجن ... وعندما انتهت المدة جاءه السجان وقال له : لقد انتهت مدتك ، اخرج ! فقال المتشرّد متضرعاً : والله يا سيدي ما عملت شيئاً حتى تطردني !

كذلك انا فقد كان لسان حالي يقول لوزير الداخلية ؟ الله يبارك لك بالجريدة واكون ممنوناً لو عطلتها على طول فقد ضقت ذرعاً وصارت عقوبتي بالافراج عنها اكبر من عقوبتي بتعطيلها ... !

* * *

اما محاولاتي الصحفية الاخرى ومراسلتي لبعض الصحف السوريه واللبنانية فلن اتكلم عنها مطولاً لان ليس فيها ما يرفع الرأس عالياً او يستدعي الفخر ... فان اصحاب الصحف في دمشق وبيروت لا ينظرون الى المندوب اكثر من نظرتهم الى الجابي ، ولا يعرفون ما لفن المراسلة الذي يضطلع به المندوب المتجول من اهمية ... !

واذكر انني على اثر تعطيل (الدفاع) اتفقت مع احدى الصحف البيروتية لمراسلتها من سورية وتوج رئيس تحريرها العدد باذاعة النبأ السعيد وهو اتفاق الجريدة مع الكتب الحر الجريء الذي هو حضرتي لاكون مراسلاً لها ومندوباً فوق العادة في سوريا ...

وحملت الاتفاقية وانا اشعر بانني قد القيت مسؤوليتي على ظهر غيري ، فلن اهتم بعد اليوم لتأنيب مدير المطبوعات ، ولا متناقضات المحرر ، ولا الحاح مدير الادارة ، ولا ضغط صاحب الامتياز ، ولا مماطلة المشتركين، ولا الاصطدام باصحاب النفوذ. ولا سلاح التعطيل الاداري ... اجل شعرت بارتياح عميق وذهبت الى دمشق مملوءاً بالآمال .

وكان من جملة شروط الاتفاقية التي وقعتها مع تلك الجريدة ان اكون انا المسؤول عن توجيه سياسة الجريدة فيما يختص بسوريا . وقد بادرت فوراً الى ارسال الرسالة الأولى فنشرت في

ابرز مكان من العدد ، والرسالة الثانية فلم يكن نصيبها اقل من سابقتها ، والثالثة فقد احتلت صدر الجريدة ...

وقد احدثت الرسائل التأثير المطلوب ، وشعرت لاول مرّة بفائدة وجود عاصمتين وحكومتين في دمشق وبيروت ، اذ كنا نستطيع ان ننشر في الجرائد السورية عن لبنان ما لا نستطيع نشره في الصحف اللبنانية ، وان ننشر في الصحف اللبنانية عن سوريا ما نستطيع نشره في الصحف السورية ، فارتفع عدد المبيع لتلك الجريدة البيروتية في دمشق ارتفاعاً كبيراً وانتشرت انتشاراً عظيماً بين القراء السوريين ..

وفجأة ودون سابق انذار ، بدأ قلم تحرير الجريدة يشوه رسائلي ، فتنشر مبتورة . وصرت ارسل الاحتجاج تلو الاحتجاج لصاحب الجريدة ولكن دون جدوى ...وحينئذ قررت الذهاب الى بيروت ! وعندما اجتمعت بصاحب الجريدة سألته عن تشويه رسائلي ؟ فقال لقد نقمت بعض المراجع على الجريدة فاضطررنا ان نخفف اللهجة ! فقلت له : وماذا يهمك من نقمة هذه المراجع طالما قد زاد انتشار الجريدة وتأييد الرأي العام لها ؟!

فقال : وهل تظن ان تأييد الرأي العام يغني عن رضى تلك المراجع؟ يا اخي انا اريد ان اعيش ولا يهمني المجد والشهرة ...

وهكذا عاد « الكاتب الحر الجريء ! » مكسوفاً وقد فسخت اتفاقيتي مع تلك الجريدة ...

اما صاحب الجريدة اليوم فقد اصبح من اصحاب الملايين، وبقي الكاتب الحرّ الجريء كاتباً حراً جريئاً فقط ... والحمد لله على هذه النعمة !!

* * *

واتفقت مع جريدة بيروتيّة اخرى ـ ضمّ الهمزة من فضلك ـ ... وكان اتفاقي معها هذه المرة على اساس العائدات . وصدف ان ذهبت مرّة الى قطنا فزرت هناك الصديق الخفيف الروح الرئيس خليل بك الورع المحتل سعيداً قيادة فصيل قطنا آنذاك ... فبادرني بتقديم « سيجارة » فاعتذرت عن قبولها لانني لم أكن ادخن ! فأمرلي بقهوة فاعتذرت ايضاً باعتبار انني لا لا اشرب القهوة لانها من المنبهات! فضحك الصديق واحبّ ان يداعبني فسألني اذا كنت اشرب الخمر ؟ فاجبته بالرفض ! وسألني

اذا كنت اقامر فقلت له اني لم اتعود ذلك ... وهنا هز خليل بك برأسه وقال : اذن لماذا ندفع لك اذا كنت لا تدخن ولا تشرب القهوة ولا تقامر ؟ ...

ومضى زمن وجاء زمن فاذا بخليل بك يصبح «ورعاً» اسماً وحقيقة فاصبح حاجاً تقياً عابداً الله كسائر عباده الصالحين ... اما انا فقد اتبعت بعض نصائحه ... ، وهكذا اصلح نفسه واصبحت فاسداً !

وعندما زادت تكاليف المعيشة في زمن الحرب واصبحت رواتب رجال الدرك لاتكفي لتأمين معيشتهم ، كان خليل بك في طليعة الناقمين على هذا الوضع الشاذ والغيورين على رجال الدرك من ان تضطرهم الحاجة الى عمل مالا يرضي الواجب والضمير والوجدان ... وقد طالب بشدة في تقاريره بزيادة الراتب !

وكنت انا من اشد المؤيدين لما يطالب به خليل بك لانه لم يطالب الا بالحق ، ولم اشأ ان اذكره بانه طالما اصبح حاجاً تقياً ورعاً فلماذا يحتاج الى زيادة الراتب ؟...

وقد كان يجب عليّ ان افعل ذلك على طريقة ، المبادلة فقط !!

* * *

واعتقد ان اكثر مشتركي تلك الجريدة كانوا على رأي خليل بك ، وبعضهم كان يدفع شتائم لصاحب الجريدة ، وطبعاً فقد تنازلت عن « كومسيوني » من هذه المقبوضات التي من نوع الشتائم ...

ومرّة نشرت تلك الجريدة رسالة بامضاء (مراسلنا الخاص في دمشق) . ولم يكن لي علم بتلك الرسالة ولا أؤيد ما جاء فيها لانه يتعلق باحدى الشخصيات التي من نوع « القبضايات » وانا لم ارد في اي وقت من الاوقات ان اكون « قبضايا » الا اضطراراً وقد كادت الظروف التي نتجت عن تلك الرسالة تجعلني «قبضاياً» بالرغم مني ... لانني كنت محاطاً بفريق يوحي الريبة كان يترقب الفرصة للاعتداء علي فيحرم عالم الادب والسلم من علم مسالم

جديد ...؟

وقد من الممكن ان الجأ الى شركة تأمين مثلاً ، ولكنني خفت ان اقابل بان حياتي وقتئذ لا تساوي اجرة المعاملة ... ! وان الجأ الى الشرطة فتكتفي بكتابه تقرير ، لان سلامتي تعكر الامن بعكس مماتي فهو يساعد من على صفاء الامن .. او ان اتمرن على حمل السلاح ، ولكن ذلك يخالف الدستور السوري الذي ينص بان حرية الفرد مصونة في حدود القانون ، فوجدت ان افضل حل الاستقالة من تلك الجريدة ، وكفى الله المؤمنين شر القتال ... !

* * *

وكان الاستاذ حبيب كحاله ما فتئ يلح علي بالرجوع الى جريدته، وكنت بدوري ما فتئت احب الطريقة الهزلية التي تحمل لواءها المضحك المبكي ، وكنت بعد تركي اياها في المرة الاولى قد اكتسبت خبرة جديدة وامكانيات جديدة، فخيل الي ان السبب الاساسي الذي دعاني الى ترك تلك المجلة قد زال بطبيعته ، لانني لا

* * *

على صاحب المضحك المبكي ميزاته التي تحبب العمل معه ،واهمها جوّ الحرية والثقة الذي كنت اشتغل فيه فلم اكن اشعر بان هناك رئيساً ومرؤوساً !؟.

صادفني بعد ترقب طويل وكنت احمل من الرغبة للعمل في المضحك المبكي والنزول الى ميدان الصحافة من جديد مثل ما يحمل ... فدعاني الى مشاركته في اصدار المجلة .

وهنا اصف ما دار بيني وبين هذا الرجل ولا اقصدالاساءة اليه،فهذه المذكرات اغلى من ان تكون غايتهاالانتقام من شخص، ولو ان هذا قصدي لكنت فتشت عن شخصية ابرز واقوى منه، انما الذنب ليس ذنبي اذا كنت في عرضي بعض الحقائق والحوادث الواقعة اسيء اليه من حيث لا اقصد ، وان يكن هو اساء الي عدة مرات قصداً ...؟

قلت له انني اشتغل معه على اساس الشروط التالية : اولاً لا اشتغل على اساس راتب يقيد في الدفترانما على اساس العائدات. ثانياً ، يوضع اسمي على المجلة كمشترك في التحرير حتى اذا وضع يوماً خبر قطع علاقة انمزى بانه سبق وضع اسمي كمحرر . ثالثاً

ان لا يجري توظيف احد في الادارة والجباية الا بمعرفتي وموافقتي.
رابعاً ان يجري تنظيم ارسال اعداد الجريدة الى المشتركين.

وسيرى القارىء الكريم كيف نفذت شروط هذه الاتفاقية التي تشبه ميثاق الاطلسي او اتفاقات تشرشل - ستالين - روزفلت. ولعل صاحب المضحك المبكي عدّني في هذه الشراكة اوّل مشترك يريد استغلاله، فكنت في الحقيقة «ادهن» مشترك حصل عليه ...

ولما كنت اعلم ان المضحك المبكي لا تتسع لجميع الاغراض التي ينشدها الصحفي، فقد اشترطت عليه ان نعيد اصدار «مصور المضحك المبكي» فوافق فوراً ... وللمصور حكاية لم اكن بطل روايتها ساقصها فيما يلي:

جهزنا مواد العدد الأول فاذا هو مشحون برسوم المرحوم الشيخ تاج الدين الحسني: رسمه وهو يستقبل القناصل، ورسمه وهو يدشن احد المستشفيات، ورسمه وهو صاعد على درج السراي. ورسمه وهو يستريح، ورسمه وهو يستقبل كبار الموظفين، ورسم كبير على الغلاف مع غبطة البطريرك طحان، وهكذا

كان العدد عبارة عن «كتالوك» لصور الشيخ تاج ...

وفهمت ان صاحب المصور يريد ان يجعل من المصور مجلة القصر الجمهوري ... ولم يكن يهمني ذلك فانا لست مديراً مسؤولاً ولا صاحب المجلة ، انما انا مسؤول عمّا اكتبه . فجاء العدد خليطاً غريباً من رسوم للشيخ تاج ومن رسم لجندي في الباسيفيك مثلاً ، ومن موضوع عن الانتخابات وموضوع عن الاكل والروستو والفاصولياء ... وبينم كان العدد يندي الجبين خجلاً بعد دعاية طويلة عريضة وبعد ان رحت ابشر بالمجلة الجديدة التي سترفع رأس دمشق عالياً ، كان صاحب المضحك المبكي معتزاً بالعدد مفتخراً بسخافاته ولم يتقاعس عن وضع جملة في «المصور» العرجاء بانها اعظم مجلة مصورة في البلاد العربية متحدياً بذلك افهام الناس واذواقهم ونظرهم ...

لقد شعرت بالقرف من العدد الاول . والانكى من ذلك ان العدد لم يكد يصدر وهو حامل رسوم الشيخ تاج والدعاية له حتى التقيت بالسيد عبد الله عبود الموظف في وزارة الشؤون الاجتماعية وقتئذ وكان متجهماً فسألته عن سبب تجهمه فقال : ان

الشيخ تاج ينازع ! وبعد برهة التقيت بصاحب المضحك المبكي فطلب مني ان اقدم بعض الاعداد للقصر ، فقلت له : العوض بسلامتك لقد مات الشيخ !

ولأول مرة وجدت حبيب كحاله يحزن حزناً حقيقياً ، ولا اعلم اذا كان هذا الحزن على الشيخ ام على مجلته الجديدة ...!؟

☆ ☆ ☆

اما انا فقد شعرت بان المجلة قد اصبحت حرة طليقة بعد موت الشيخ فجددت عزمي للعمل ... وجاء العدد الثاني افضل من سابقه وابرز اثراً . ودعمت المجلتين دعامة قوية مادياً وادبياً ووسعت انتشارهما توسيعاً كبيراً ، وقلت بنفسي هذا ميدان الاخلاص فرفعت اسهم المجلة ، وكنت احسب ان التفاهم سيستمر بيننا طالما انا قد رفعت المجلة من الحضيض الذي كانت قد انحدرت اليه وجعلت لها شأناً ...

ورغبت في مضاعفة الجهود فنظمت خطة الرحلات الى الاصقاع السورية والكتابة عن الاماكن المنسية او المهملة . واستصحبت المندوبين للجباية ، وكنت اظن اني غني بثقة

سموأل الدهر حبيب كحاله ومستقبلي في المجلة فكانت الدراهم تتحول اليه وانا راض مغتبط، الست غنياً بثقة سموأل الدهر، وقوياً بميثاقنا الاطلسي؟!...

وبدأت العراقيل تقف في وجه المصور من صاحبها نفسه. كان يريد ان ينشر الصور دون ان يتكلف عليها شيئاً، فكنا اذا نشرنا صورة لشخص او جماعة وجب ان نأخذ منهم ثمن «الكليشة» ... وانه لشيء مخجل حقاً ان ننشر صورة لشخص ونقول له هات ثمنها فكنت احياناً امام الحاجه، ادفع الثمن من جيبي. هكذا دفعت ثمن كليشهات متعددة لبعض الشخصيات المعروفة ولبعض كبار قادة الدرك ووجهاء جبل العرب، ولم يكن احد من المنشورة رسومهم الا صاحب فضل على المجلة...وامام هذا الاحراج وجدت افضل حل ان اترك صور الحرب تحتل اعداد المجلة فاصبحت عبارة عن «كتالوك» لرسوم فاسدة من بقايا الكليشهات التي تنشرها مجلات القاهرة وبيروت والقدس والتي قرف الناس من النظر اليها منشورة على الحيطان...!

وكنت احياناً، بغية التوفير في ثمن الكليشهات، اقع في

ورطات مضحكة، كالورطة التي وقعت لي مرة مع احد قادة الدرك فقد نشرنا له رسماً صغيراً جاء غير واضح المعالم مما جعل عدم نشره افضل ... وبدلاً من ان يكون نشر الرسم تقديراً للقائد، فقد كان نشره مشوهاً شبه تصغير من حيث نريد التعظيم ! ولكن غضب القائد لم يدم طويلاً فقد نشرت له رسماً كبيراً فخماً بمناسبة اخرى ولاول مرة وجدت صاحب المبكي يصمت صاغراً فلا يقيم علي النكير للمطالبة بثمن الكليشة، ولست اعلم اذا كان هذا ناتجاً عن رغبة او رهبة، واذا كان القلم تصاغر امام السيف؟ ومن ذلك الوقت اخذت درساً نافعاً فصرت اكثر من نشر صور العسكريين واقلل من صور المدنيين. فمن الشخصيات العالمية مثلاً كنت اهتم بنشر صور ايزنهاور وتيموشنكو ومونتغومري اكثر مما اهيم بنشر صور روزفلت وستالين وتشرشل ! ومن الشخصيات السورية كنت اهتم بنشر صور تحسين بك العنبري ومنير بك الملي وهرنت بك مثلاً اكثر مما اهتم بنشر صور جميل بك الالشي او حسني بك البرازي او عطا بك الايوبي وهم سادة الموقف وقتئذ ...!

* * *

واني اضحك اليوم من نفسي لما اذكر اول رحلة قمت بها الى الملحقات . كانت رحلتي الى حوران وكان عندي بعض المشتركين في القرى فذهبت الى زيارة الصديق الكريم والقائد المحبوب حلمي بك الجراح قائد سرية درك حوران وقتئذ والتمست منه توصية الى مخافر الدرك لتسهيل مهمتي الادبية في التجوال . فعمم التوصية باعتبار ان الاستاذ الكبير - اي الداعي - سيقوم بجولة في المناطق ، فالمطلوب من رؤساء المخافر تأمين راحتي . . .

وقصدت في اول الامر مخفر نوى ، فاستقبلني رجال المخفر بالترحاب ، وسألني رئيس المخفر عن اسماء مشتركيّ ، فاذا كل مشترك في قرية . فما كدت استريح قليلاً حتى جاءني رئيس المخفر فقال : قم! قلت الى اين ؟ قال: لقد جهزنا الحصان لاجل ركوبك! قلت له : اي حصان ؟ قال : الحصان الذي تمتطيه لتتجول في المنطقة!

وهنا اسقط في يدي ! فانا لم اعتد من ركوب الخيل سوى

ركوب رجلي . فخرجت لالقي نظرة على الحصان فما كاد يراني حتى همهم وصهل ، فارتجفت مفاصلي رعباً، وتصورت غداً كيف ينعي الناعي الاستاذ الكبير ضحية ركوب حصان اصيل لا ينطوي قلبه على اية شفقة على غشيم مثلي بركوب الخيل ...

ولما رآني رئيس المخفر محجماً ، سألني : ماذا ؟ فقلت له : لا شيء ، سوى ان ليست هذه الغاية من مجيئي ! (ولما لاحظت نظرة الاحتقار التي كاد يرمقني بها تابعت قائلاً) : ولكن الحق بيدك فانني بحاجة ان اتعرف الى المنطقة ولا سبيل لي الا الركوب ...

وتقدمت الى الحصان ووضعت رجلي في الركاب ويدي على ظهره ورفعت رأسي الى السماء وقلت : يا رب اعني ! وقفزت قفزةً قوية فانقلبت من فوق ظهر الحصان الى الجهة الثانية ! فرفعت رأسي مرة ثانية وقلت: يا رب اعنت وا كثرت !فشفعت بي هذه النكتة التي اضحكت الجنود واعفوني من ركوب ذلك الحصان الاصيل وجاؤوني بكديش مخصي واطيء الظهر بحيث اني لما اعتليت ظهره صرت اجر رجلي على الارض جراً ...

وهكذا بدأت عملي في المضحك المبكي كمحرر هزلي لاضحك الناس فاصبحت اضحوكة نفسي ! وعلمت حينئذ فائدة مصادقة وزير التموين مثلاً .فاذا كان لا بدّ للصحفي من ان يختار بين مصادقة وزير التموين . . . او الفاقة او ركوب الخيل فلا شك انه يفضل مصادقة الوزير هذا الا اذا كان مثالياً واهماً مثلي لا يرضي البائع ولا الشاري ...!

* * *

وقد اطلعتني جولتي في حوران على حقائق تثير الفضول حقاً: اولاً ان الحوراني مأكول مذموم يرعى حرمة الضيف ولا يرعى الضيف حرمته! ثانياً ان المرأة تلعب دوراً خطيراً في حياة الحوراني وقيمة المرأة تعلو على قيمة الرجل بل ان المرآة الحورانية هي اغلى امرأة في سوريا حيث لا يتيسر الزواج منها الا لمن يدفع مبلغاً كبيراً ! ثالثاً ان سكان حوران هم من الفلاحين المجدين ومع ذلك فالنظام العشائري سائد بينهم ، بينما هذا النظام الذي يسود غالباً بين البدو يعتبر اكبر عدو خطر على الفلاحين ! !رابعاً ان الامية متفشية بشكل يلفت النظر في حوران بينما المتعلمون منهم من اذكى الناس وهذا ما يدعو الى

الاسف فكم من نبوغ مدفون وراء الجهل والامية !

ويتمتع شيوخ حوران وزعماؤها بنفوذ قوي . والملاحظ ان الشعب الحوراني بطيء التطور لانه خاضع للعسف الاقتصادي والاجتماعي . وللطبيعة نصيب في ظلمه لانها حرمت ارضه المياه وهي عنصر قوي في الاعانة على العمران . ولو شاءت الحكومة لاستطاعت ان تقيم مشاريع ري كبيرة كما انه من المتوجب عليها فتح الآبار الارتوازية بكثرة وتشجيع التشجير تشجيعاً عملياً ...

* * *

وعلى ذكر التشجير اقول انه قد جرت العادة في كل سنة ان تقام مهرجانات عيد الشجرة في حوران اسوة ببقية المقاطعات السورية . وقد حضرت هذا العيد مرتين ، الواحدة في درعا والثانية في بصرى الشام . فاما في المرة الاولى فقد كان منظمو العيد القائد المقدام منير بك المللي قائد سرية درك حوران وقتئذ وحضرة رئيس بلدية درعا مفلح افندي المحاميد ، وقد ساهمت مساهمة فعالة في هذا العيد حيث اذعت خبره ونشرت بعض رسوم الاحتفال ! ! وفي المرة الثانية حضرت العيد في بصرى الشام حيث

قام بتنظيم المهرجان حضرة رئيس بلدية بصرى الغيور محمد افندي المقداد والشاب الشعبي المتحمس الاستاذ سليمان المقداد ومدير مدرسة المعارف .

وقد القيت الخطب وكلها تحض على التشجير ... ولكن الاستاذ سليمان افسد الطبخة كلها ، وكان على حق ، فقد القى خطاباً بيّن فيه عدم جدوى وفائدة هذه الاعياد التي تقام وتدار فيها كؤوس الشاي وتلقي الخطب ... لان الفلاحين اصبحوا مدركين فائدة التشجير ، انما هناك تدبير واحد اذا قامت به الحكومة فالتشجير يتم بطبيعته وما هذا التدبير سوى انهاء اعمال التحديد والتحرير لان بدونه لا يطمئن مزارع الى مستقبل ارضه ، وتكون اعياد الشجرة في حوران مناسبة لشرب الشاي فقط والقاء الخطب ... وهكذا تكلم الاستاذ سليمان الحق فقطع كلامه قول كل خطيب ...

وقد ذكرني اسم سليمان بورطة تشبه الورطة التي وقعت بها مع قائد الدرك ... فقد كلفته بكتابة مقال عن آثار بصرى وطلبت منه بعض الرسوم اتماماً للفائدة . ولكن صاحب

المصور ابى ان ينشر المقال الا اذا قبض ثمن الرسوم سلفاً، وهكذا كسفني وبقي ذلك المقال الرائع المفيد من جملة الآثار …

* * *

وكانت ثانية رحلاتي الى جبل الدروز او جبل العرب ـ اذا شئت ! ـ . هذه مقاطعة عربية علمت الغريب دائماً كيف يحترم ارادة ابنائها فلا يفسر شهامتهم بساطة ، ونخوتهم تهوراً، وكرمهم انخداعاً. ان الدرزي عزيز انوف بقدر ماهو متواضع طيب القلب عفّ اللسان ، ولا يخرج عن حد الاعتدال الا في موقف النخوة والنجدة والافتخار والاعتزاز …

وتاريخ الجبل تاريخ نضال دائم مستمر ، ولذا اصبح الدرزي يشرب الشجاعة مع الحليب ، ويتلقى اول ما يتلقى دروس البطولة التي يذخر بها تاريخ الجبل وينقلها الاحفاد عن الجدود ، واني لاذكر حكاية تمثل اخلاق الدرزي ابلغ تمثيل .فقد اشتهر في تاريخ الجبل وغزواته بطلان احدهما محمد ابو عساف الملقب بالقميزي والثاني ابو علي الحناوي (وارجو ان لا اكون مخطئاً بالاسماء !) … وقد سئل مرة احد الدروز : من افضل ؟ القميزي ام الحناوي ؟

فاجاب : نحن نحترم الاثنين ولا نفضل الواحد على الآخر انما نحب القميزي . لان الحناوى عند ما يكون في غارة ينادي باعلى صوته : (يا ولد اجاكم الحناوي ؟) فتسبق هيبته فعله ، اما القميزي فلا يذكر اسمه حتى يذبح !!

لقد كلفت هذه العزة الجبل الدرزي دماء غالية ولكنه يجني ثمرتها اذ انه دائماً عزيز مرهوب الجانب موفور الكرامة بعيد الصيت ... ولعل الجبل بحاجة الى تطور سريع في الميدان الاقتصادي والاجتماعي والعمراني انما من الناحية المعنوية فان ذكره عاطر كالمسك ولا سبيل الى المواربة او النكران !

والجبل قد يستكن ولكنه لا ينام على ضيم . فاذا دعا داعي الجهاد فهو دائماً في الطليعة . واذكر حواراً دار بيني وبين الكومندان سارازان . المندوب الافرنسي في الجبل مدة الحرب الاخيرة فقد قلت له من جملة حديث : ان سياستكم الخرقاء في الجبل تنفر القلوب من حولكم فلا تخدعوا بالمظاهر فان الجبل سيتعبكم ! فابتسم سارازان وقال : ان ادارة الجبل اسهل علي من ارتشاف هذه القهوة! وكان فنجان القهوة بيده فارتشفه بلذة وتمهل!

ترى ماذا يقول سارازان في حوادث ٢٩ ايار عندما اصبح وحيداً محتمياً بدار معالي حسن الاطرش؟ فهل كان في وضع يمكنه من شرب فنجان القهوة ؟؟

* * *

وللتقاليد شأن واي شأن في الجبل بعضها حسن وبعضها لا يساير التطور السياسي والاجتماعي المطلوب. فمن الحق ان يتنازل الافراد عن كثير من امتيازاتهم لمصلحة الدولة حتى يكون القانون موحداً مطاعاً، والا بطلت الفائدة من التشريع اذا كان التنفيذ كيفياً ...

واعتقد ان التحفظ القديم له ما يبرره، اما اليوم فان الامور تتطور وتسير من حسن الى احسن. سيما وان هناك كثيراً من الزعماء وعلى رأسهم معالي الامير حسن الاطرش يشعرون بضرورة هذا التطور ليقف الجبل على قدم واحدة مع بقية المقاطعات السورية في الميادين الاجتماعية والاقتصادية والسياسية

لانه لا تحدث وحدة حقيقية ان لم تتوحد المناهج والقوانين وتتقرر سيادة الدولة بشكل يجعل الفرد مطمئناً الى عدالة القوانين الاجتماعية !

وتقوم اليوم في الجبل حركة عمران نشيطة ، واعتقد ان رحلاتنا المستقبلة ستكون على طرق اصلح من الماضي . ففي آخر مرة زرت فيها جبل الدروز عجبت اذ اضطررت للسير على طريق السويداء صلخد وهي لا تتجاوز الاربعين كيلومتراً في ارض وعرة. وهكذا قل عن طريق السويداء - شهبا . اما المشاريع المائية فلم يتم منها غير القليل البسيط مما يدل على نية المستعمر السيئة وسياسته الانتقامية التي لم يكن يقصد منها غير الارهاب ومحاولة الافساد ...

ذلك عهد مضى ، واني لا ازال اذكر تلك الاحاديث الهادئة المتألمة التي كنت اسمعها من بعض زعماء الجبل الذين كان يعضهم اهمال شؤونه ، والذين يعلقون على المستقبل اطيب الآمال ! ...

واني لا ازال اذكر في صلخد تلك الامسيات الهادئة الحلوة التي

قضيناها عند قائمقامها الهمام صياح بك الاطرش . هذا الرجل الذي يمثل الخلق الرضي والروح النيرة ! رجل اشتهر باللطف كما اشتهر بالشجاعة واحكام الرماية يصطاد بانسانيته كما يصطاد الاعداء بجرأته .

وقد القى علي بعض النكات وآلى علي ان لا اذكر شيئاً منها عن لسانه . وها انا اليوم بعد طول المدى استميح العذر لنفسي فاخون العهد بذكر حادثة طريفة قصها علي عند ذكر الصيد والصيادين . وهي تتعلق بعطوفة القائد العام سلطان باشا الاطرش عندما كان في الازرق . فقد خرج مرة مع اصحابه للصيدففوجىء بارنب يقفز من امامه بسرعة لم تترك له مجالاً لاستعمال السلاح . فما كان من سلطان باشا الا ان تناول حجراً ورمى به الارنب بقوة ... وكان لعطوفته كلب بارع ما كاد يحس بالارنب حتى هب لمطاردته . فزق الارنب بصورة خاطفة والكلب في اثره ، فنجا الارنب واصاب الحجر الكلب فرماه . وكان صيد غير موفق لا يزال عطوفة الباشا واصحابه يتندرون بحكايته ويضحكون ...

ولم يكن صياح بك اقل فكاهة عندما اضطررنا الى امتطاء الخيل للانتقال الى امتان لزيارة علي بك مصطفى الاطرش . فقد ضحك من طريقتي المأثورة في ركوب الخيل والتي سبق ذكرها مما لا نرى فائدة باعادته ، واقترح علي ان اقتني حمارة قبرصية بيضاء فهي ارأف بي وارحم من الخيول الاصيلة . ولكنني لم اشأ تنفيذ الاقتراح لانني خفت ان اغلط بجنسية الحمير ... سيما وانا لا اسمع قبرص حتى اتذكر حكاية الشيخ خليل الخازن مع احد السادة المطارنة عندما عيّن مطراناً على قبرص . فقد قال المطران للشيخ : ارأيت يا شيخ ؟ لقد عينوني مطراناً على قبرص !! فأجاب الشيخ على الفور : ماذا تريد ان تعمل في قبرص يا سيدنا ؟ الذي مثلك لا يروح الى قبرص بل يجيء منها ...!

* * *

اما في امتان فقد تجلت لنا الضيافة العربية في اجلى معانيها في دار علي بك الاطرش الذي عرف كيف يحتفظ بالحياة القديمة في مظاهرها المقبولة من « المضافة » الاثرية والقهوة العربية المأثورة الى متممات الحياة العصرية في مسكنه العصري

الجديد ...

وعلي بك في مقدمة شباب الجبل المتوثب الذي جاهد منذ الدقيقة الاولى في سبيل الوحدة ، فكان اسمه دائماً في طليعة المجاهدين وذكره عاطراً في كل مكان . ولكنني لن انسى له محاولته ان يتسلى بنا اذ طلب منا ان نحل لغز مخترع الشطرنج الذي قيل ان احد شاهات العجم كلفه بان يوجد لعبة يلهي بها الناس عن الشؤون السياسية التي كثر اهتمامهم بها فاخترع الشطرنج . فسر بها الشاه سروراً عظيماً وقال لمخترعها الفيلسوف: تمن علي ! فأجاب الفيلسوف : انني يا مولاي زاهد في دنياي ولا اطلب منك اكثر من ان تعطيني حباً من الحنطة على عدد بيوت الشطرنج الاربعة والستين ، ولكن على طريقة مضاعفة اي عن البيت الاول حبة والثاني حبتين والثالث اربع حبات وهكذا مضاعفاً الى نهاية البيوت الاربعة والستين ! فعجب الشاه لهذا الطلب الحقير وظن ان قبضة من الحنطة تكفي هذا الطلب ! فامر احد عماله بان يعمل حساب البيوت على الطريقة الانفة الذكر ويدفع للفيلسوف ما يبلغه الحساب. ولكن عامله بعد ان غاب مدة طويلة

وهو يشتغل بالحساب عاد فقال للشاه ان كل حنطة المملكة لا تكفي لاجابة طلب الفيلسوف...

وهنا طلب منا علي بك ان نعرف ما هي الكمية التي جاءت نتيجة الحساب . واني لا ازال الى اليوم احسب ولم اعرف هذه الكمية بعد... واني ارجوك ايها القارىء اذا كنت ممن يكرهون الحساب مثلي ان لا تحاول حل هذا اللغز ... لان ذلك سيشغل اوقاتك ويشكل عليك اعظم ضرر من قراءة هذا الكتاب !!

* * *

وفي الحقيقة ان كل ذكرى عن الجبل تصغر امام ذكراي عن ٢٩ ايار والايام التي سبقته . لقد توالت الاحداث بسرعة وكانت اخبار العاصمة السورية تصل الى السويداء فتثير النفوس نقمة على تحدي المستعمرين ...وقد يحلو لكاتب متحذلق ان يقول انه اعترى الناس وجوم في السويداء. والحقيقة لم يكن هناك وجوم بل غضب وترقب واستعداد . كان الوعي على اشده ، وقد قبل الدروز التحدي وقامت مظاهرات صاخبة في

السويداء .

ومما استلفت نظري ان الدروز لا يحسنون التظاهر ولا يتقنونه كما يتقنه الدمشقيون مثلاً ..... كانت المظاهرات تسير بفوضى وتسمع خلالها اصواتاً ونداءات متباينة. فهذا يحدي وهذا ينشد النشيد الوطني السوري . ها هي جماعة تسير بنظام واكثرها من طلاب المدارس ، وفي نفس الوقت تسير جماعة ولكن بغير نظام ... وفي الحقيقة ان النشيد الوطني كان يبدو بارداً ضعيفاً امام حداء الدروز الحماسي التقليدي المشهور .

لقد قلت لاحد الزعماء الدروز ونحن نشاهد تلك المظاهرت: انكم لم تتقنوا بعد فن التظاهر ؟ فضحك وقال لي : ان هـذا زي غريب عنا ، وهو ينتشر من جديد ، واذا كنا لا نحسن التظاهر فاننا نحسن خوض المعامع !!

* * *

تلك ايام مجيدة خالدة ساهم كل امرؤ فيها بنصيب ... ومما يذكر بالاعجاب الشديد موقف ضباط المجتمع الدرزي الذين اتفقوا على العمل يداً واحدة واحكموا خططهم بتكتم واتقان ،

شديدين حتى اذا حانت الساعة تم كل شيء بهدوء وسرعة فلم ير الاجنبي نفسه الا امام امر الواقع ... ولا ننس ان تمرد سعدو عامر ورفاقه كان اول انطلاقة للحرية المتحفزة المتوثبة المتطلعة نحو النور ...

ولم يخل هذا الاجماع الرائع على مقاومة المغتصب المعتدي من بعض محاولات لعرقلتها ... فكان الساعون الدساسون يبوؤن بالفشل الذريع . وقد تذرع هؤلاء الدساسون باساليب مختلفة كالاسلوب الذي تذرع به احد موظفي شركة اجنبية اذ قال لي: انه ليس من اللياقة ولا التهذيب ان توضع في النشرات كلمة من نوع « ايها الافرنسيون الانذال » او ان تنشر صورة ديغول على الشارع وتداس بالاقدام او الخ... اما اللياقة والتهذيب فلا يجب ان تمنع — في عرف ذلك الموظف — الافرنسيين من التقتيل والتخريب والاعتداء ... الخلاصة ان اجماع الشعب الرائع قد قضى قضاء ذريعاً على هذه الطفيليات ، وانتقم الجبل للدماء الذكية المسفوكة في ثورة ١٩٢٥ حيث كان الاحتلال كغيمة فانجلت او ككابوس ثقيل أزيح فاسفر عن راحة واطمئنان .

ساتحدث ايضاً عن جولاتي وأحسب القارئ سيسمح لي بان انفس عن صدري قليلاً لان من ساواك بنفسه فما ظلمك ! فكما انني اضحك على نفسي فاظن ان القراء سيسمحون بان اضحك معهم قليلاً وانتقد ما اراه موجباً للنقد !

جاءني مرة رئيس مخفر للدرك وقال لي : يا استاذ اراك تنتقد جميع الناس فلا يسلم من لسانك لا الكبير ولا الصغير ولا « المقمط » بالسرير ... فاذا لم تجد من تضحك منه فتفعل مثل البحتري وتضحك من نفسك ... الا (فلان ...) القائد فلا تذكره بشر . فهل ذلك رهبة ام تستراً ام تجاهلاً ؟ ..

فقلت له : ولماذا اذكره بشر وانا لا اعرف عن سلوكه ما يشين ؟! قال : اذا كان هذا هو السبب فخذ هذه الحكاية : لقد عينوني رئيساً لاحد المخافر الواقعة في منطقته وكانت الفوضى ضاربة اطنابها فيه من جراء اعمال شاذة قام بها سلفي ... فاستدعاني ذلك القائد وقال لي : يا فلان، لقد وضعت ثقتي فيك، واريد منك

ان تضع حداً للفوضى في المخفر ! قلت له : انني سأكون عند حسن ظنك ولكن بشرط ان لا تسمع شكوى بحقي ان لم تكن منصفة ! فقال : انني اعدك بذلك !

ومر شهران انتظمت فيه اعمال المخفر مثل الساعة! وكنت وجنودي نضاعف الجهود لكي لانخون ثقة القائد! الا ان بعد تلك المدة بدلاً من ان انال الثناء والشكر اتصل بي ذلك القائد تلفونياً وقال لي : يا فلان لقد خنتني ! قلت له : كيف ، وانا ابذل قصارى جهدي للقيام بالواجب ، وذكرته بوعده بان لا يسمع شكاية اي نفعي مغرض ؟؟ وهنا غضب وجعل يهدد ويتوعد ... !

وعرضت الامر على صديق فنصحني بان اقدم هدية للقائد او ان اعرض الامر على من هم اكبر منه لينصفوني منه! ففضلت الامر الاول وقدمت له هدية ذات قيمة وذهبت لمقابلته وكنت اظن انه لا يزال غاضباً واذا به يستقبلني بترحاب كبير وهو يقول لي: اعمل كما تشاء بشرط ان تكون حكيماً فلا تدعني اسمع شكاوى عنك !! ...

اما انا فلما سمعت هذه الحكاية قلت له : اظن ان الحق

عليك لا على القائد لانه كان يجب عليك ان تعلم رؤساءه بالامر ولا تخضع لتهديده بغية افساد ضميرك ، لانك لما تضطر الى ان تقدم له الهدايا تضطر الى ان تقبل الهدايا من الناس ...

* * *

ولا بد لي هنا من كتابة كلمة عن تأثراتي الشخصية من جولاتي في اقضية دمشق وهي قطنا والقنيطرة ودوما والنبك هـذه الاقضية الغنية بالاماكن الصالحة للاصطياف ، والتي تتميز بميزات عديدة تتفوق بها على المصايف البحرية من حيث اعتدال المناخ ، ونقاء الهواء ونشوفته وبعدها عن الرطوبة التي يحملها الهواء من البحر ... ولكنها ميزات لا تكفي لاستجلاب المصطافين الغرباء الذين يتطلبون ، الى جانب الميزات الطبيعية ، الراحة التي يوفرها التقدم في العمران ، وتنظيم وسائل النقل والمواصلات ، والاكثار من اماكن السكن واللهو البريء ، وفتح الشوارع ، وادخال الوسائل الصحية المدنية العصرية وتعميمها في القرى ...

ومع معرفتي التامة بان خير الطرق لتشجيع الاصطياف هي اقبال المصطافين انفسهم ، حيث يكونون بعد عودتهم دعاة مجانيين

في محيطهم ! غير ان هناك تقصيراً عظيماً في الدعاية للاصطياف ، حيث لا يعرف الغريب شيئاً عن المصايف السورية ولا عن مبلغ التطور الذي بلغته . وليس في سوريا جمعية او لجنة تعنى بهذه الناحية وتصدر النشرات المجانية للتشويق والترغيب واعطاء المعلومات اللازمة التي تهم المصطاف ... وقد اكتفي في هذا الباب بصدور بعض كتب لا فائدة منها تذكر ولم يصدرها فنيون مختصون عارفون باصول الدعاية والاعلان ...!

وترى تبعاً لذلك مئات الوف الليرات السورية تتسرب سنوياً الى الخارج عن طريق المصطافين السوريين . وقد كان من الممكن ان تصرف داخل الاراضي السورية لو اعتني بتنظيم المصايف ، وتشجيع سياسة القروض السخية بفوائد بسيطة والاهتمام بالدعاية الواسعة والاعلان ، مما يدر على البلاد السورية افضل الفوائد الادبية والمادية فلا يعتقد الغريب ان سورية بلاد الصحاري الشاسعة والبدو الرحل والحنطة والرز والملاريا فقط ...

وبمناسبة ذكري للنبك تحضرني نكتة جرت لي مع الصديق

(اللدود) القائد يحيي بك انابلي عندما كان قائداً لفصيل درك النبك ، فقد زرته مرة في نيسان ، وصدف ان نزل المطر عند قدومي بعد انحباس طويل فانتعشت آمال المزارعين بعد يأس... فقلت ليحيي بك : (يقال ان الصحافيين ليست منهم فائدة ... وها ان المطر قد نزل على قدومي ، ومعلومكم ان المطر في هذا الفصل له فائدة لا تقدر بثمن فما رأيكم ؟) . فقال : (ليس من اجل هذا نزل المطر ، بل ان المزارعين لما علموا بتشريفكم ، دعوا الى ربهم ان ينزل المطر ليعرقل جولتكم في المنطقة ، فاستجاب الله الدعاء !!) .

وهي نكتة موفقة قالها الصديق يحيي بك... ولكن ايكفي ان تعرقل جولة الصحافيين في المناطق ، وما الصحافيون غير الرسل الذين ينقلون الحقائق الى الرأي العام !؟

* * *

كانت خطوتي التالية الى حمص وحماة البلدتين المتنافستين في ميدان التنكيت وتشويه السمعة الطيبة ... ومن العبث ان نضع حداً لهذا التنافس بامتداح كلتا المدينتين فنقول عن حمص

مثلاً انها مدينة (العقلاء) وعن حماة انها مدينـة (التسامح) او (مدينه بنساء) رداً على ما قيل في مجلة مصرية محترمـة من انها (مدينة بلا نساء) ... فهذا التنافس سيبقى موجـوداً وسيستمر الحمصيون بالتنكيت على الحمويين والحمويون بالتنكيت على الحمصيين، وما لنا اذن الا ان نقـول بأن كلا الحمويين والحمصيين على حـق ...

ان حمص مدينة غنية بالمثقفين ، والفضل في ذلك يعود الى مدارسها العديدة والى مركزها الجغرافي والى تقدمها الصنـاعي والتجاري . اما حماه فهي مدينـة الاريحيـة والحيوية والنشاط والعروبة الحرة غير المزيفة ولا الملتوية. وارجو بعد هذه الشهادة الصادقة ان اكون ارضيتُ كلاً من الطرفين الذي يحـاول ان يحط بقيمة الآخر ليعزّز فضله وميزاته وتفوقه الخاص ...

ولعل حماه قد سجلت نقطة جديدة للتفاخر بما اظهرت من بطولة وشجاعة في مقارعة الافرنسيين.. والجدير بالذكر ان الحمويين لم يسروا بنجاحهم في دحر المستعمر الغاشم بقدر سرورهم من اظهار تقصير الحمصيين عنهم في هذا المضمار ... اما نحن فنقول ان ماضي

المدينتين غني بالوطنية والبطولة وعدم الصبر على الضيم والذل ...

وقد كان يلذ لي دائماً ان اداعب (ذوات) حماه واحرجهم بما لا يخرج عن مجال النكتة البريئة ... وقد رجاني احد الوجهاء الحمويين مرة ان اكف عن ذلك العبث قائلاً ان تنكيتي وان يكن بريئاً الا ان بعض الناس يفسرونه تفسيراً لا يتفق مع ما اريده من المداعبة فقط ... فعجبت لهذا الرجاء الذي لايدل على تفهم ولا على رحابة صدر ... الى ان كتبت مرة كلمة تحت عنوان (ذوات حماه) اعطيت فيها لكل منهم الصفة التي تميزه ... وذكرت فيها عن حسني بك البرازي انه (اشدهم غموضاً) والمعنى ظاهر ... الا انه بعد ظهور العدد التقيت باحد هؤلاء الذوات فابان لي اعجابه بالكلمة وقال : لقد كنت موفقاً باعطاء كل منا الصفة التي يستحقها مما يدل على صدق فراسة واطلاع واسع سيما الصفة التي اعطيتها لحسني بك البرازي ، فحقيقة انه (مغمض) ...

لقد فسر صاحبنا كلمة (اشدهم غموضاً) بان حسني بك

(مغمض) والفرق ظاهر بين المقصود من الجملة الاولى وبين هذا التفسير المغلوط ...؟ وحينئذ لم اعد استغرب لماذا رجاني ذلك الوحيه بان اكف عن التنكيت على الذوات طالما البعض يفسر مثل هذا التفسير ...!

* * *

وفي حلب ظهر اول خلاف على تفسير ميثاق الاطلسي المعقود بيني وبين سموأل الدهر ... فقد تواتر تعيين المندوبين لان حبيب كحاله يعتقد انه كلما زاد التنافس بينهم فلايستفيد غيره من هذا التنافس ... كما ان نتيجة هذا التنافس تكون ازعاج الناس وبالتالي الحط من كرامة الصحف التي يجب ان يترفع اصحابها عن (الشانتاج) وان ينتهجوا الطرق الادبية المقبولة لزيادة انتشار صحفهم ، وتعويد جمهرة المشتركين على المعاملات المادية الصريحة المنظمة ...

لقد عيّن مندوباً لمحافظة حلب وآخر لمحافظة الفرات والجزيرة وآخر لمحافظة دمشق اما انا فقد ارادني ان اكون مشرفاً على المندوبين ... ! اي انه عينني سفيراً فوق العادة وعيّن قناصل

ووكلاء فناصل ، فكانت النتيجة انفراط عقد هذه الدولة الوهمية التي فقدت قوتها الادبية والمعنوية فلم يبق غير ورقة مصبوغة تعرض نفسها عرضاً كوسيلة للاستغلال الصحفي الرخيص ...

اما مندوبه في حلب فله مقياس غريب للعمل الصحفي . فهو يعتقد ان زبائن المجلة قسمان : قسم يدفع عن غباء وجهل ، وقسم يدفع خشية (البهدلة) مما لا يتضمن اي احترام لا للمجلة ولا لصاحبها ولا لانصارها ...وقد طلب مني ان انظم «قصيدة» تخويف تهتز لها قلعة حلب ونزلاء خان الجمرك ... فنظمت قصيدة هزلية جاء فيها هذا البيت :

ان كنت اظهر بينكم « مستضعفاً »

فلأن جيبي مثل رأس « الحربلي »

فكانت شتيمة لهذا التاجر ليس لها اي مبرر ولكنها نالت اعجاب صاحبنا واستاذه اذ على اثرها سارع اكثر من ستين شخصية لقبول الاشتراك ، وكان هذا التسارع فضيله منهم باظهار التعقل وخشية قول الناس عنهم ان رؤوسهم فارغة كجيبي ...

لقد كان للمجلة في وقت من الاوقات الف مشترك في ملحقات حلب من اشخاص لا يحسنون التكلم باللغة العربية ، هذا فضلاً عن جهلهم القراءة ! وقد سارت الخطة على هذا الشكل في الجزيرة بين الاكراد الاميين ، وهذا ما يفسر ضياع قيمة هـذه المجلة التي كانت في وقت من الاوقات ميزان التيارات الشعبيـة ، فاصبحت هيكلاً بلا روح...

كنت ازور محافظة حلب في فترات متباعدة وفي كل مرة كنت اتألم اذ لا اجد تقدماً يذكر لا في الميدان الثقافي ولا العمراني ولا الاجتماعي اذ لا يكفي ان نتبجح في هذا الدور باننا حققنا اشياء لم تحقق في عهد الانتداب ، ورحم الله الشاعر العربي حيث قال :

الم تدرِ ان السيف يُذرَى بقدره

اذا قيل هذا السيف امضى من العصا

واذكر انني قابلت مرة احد القائمقامين وسألته عن الحالة

في القضاء ؟ فاجاب : ان السكان هنا مطيعون للحكومة ! ولما سألته عن المشاريع العمرانية التي قام بها ؟ سكت وعيّ عن الجواب ! ولا ادري ما معنى ان يكون الشعب مطيعاً للحكومة ، فهل هذه الطاعة عن رضى ار اكراه ، وهل يجب على الشعب ان يكون مطيعاً للحكومة بالباطل او بالحق ! وهل يكفي ان يكون الشعب مطيعاً فلا تأخذ الحكومة بيده لما فيه خيره وخير البلاد ؟ !

ان ذلك القائمقام وامثاله يظنون بان مهمتهم تنحصر باخضاع الشعب وحضه على الطاعة فقط ، ولا يدرون ان عليهم واجبات اخرى اهم من ضمان الطاعة بكثير ... ! ان عليهم واجب ادخال الوسائل المدنية العصرية للقرى المحرومة وبث التعليم وروح التحرر واليقظة الوطنية والوعي القومي والتطلع الى مستقبل احسن ، وتنشيط الاقتصاد الوطني الى آخر ما هنالك من اعمال تعين على التطور وتدفع الشعب دفعاً الى الامام ...

وهناك قائمقامون يعتقدون ان مهمتهم تقوم بتثبيت نفوذ كل ذي نفوذ ، ولا يعلمون انه من المتوجب عليهم تنفيذ القانون بدون

محاباة ، ولو اصطدمت الدولة بنفوذ بعض الانانيين لان الدولة لا تبنى الا على العدل .

وهناك قائمقامون بارعون بالتخدير ! ولعل التخدير يعد من حسن الادارة ... انني احتفظ ببعض تصريحات واحاديث مع قائمقامين قبل عشر سنوات ! وبها يظهرون ما سيقومون به من اعمال . واليوم نتطلع فلا نرى من هذه الاعمال شيئاً ... ولو رحنا نسأل من جديد بعض هؤلاء القائمقامين عن المشاريع التي ينوون القيام بها لكرروا ما كانوا يرددونه من قبل عشر سنوات ... وربما عزل بعضهم او احيل على التقاعد او ... مات ! ، وهو يردد ما ينوي القيام به من اعمال نضطر - مع الاسف - الى القول انها وهمية .

وقد يقال ان سياسة عدم الاستقرار هي المسؤولة عن هذه الحالة ... ولو سلمنا جدلاً بذلك وتركنا جانباً كل ما يمكن عمله في الميادين العمرانية والاقتصادية والاجتماعية فما هو العذر في تأخر الناحية الثقافية ؟

ان اكثر سكان اقضية حلب على الحدود يتكلمون

التركية او الكردية او الارمنية . وهم في كثرتهم الساحقة اميون لا يحسنون القراءة والكتابة . وهذا يضطر الحكومة السورية الى ان تعين في هذه الاقضيـة قائمقامين يحسنون التخاطب بتلك اللغات ، اي انها تعين بعض القائمقامين المخضرمين الموروثين من عهد الاتراك وعهد الانتداب . . . ولك بعد ذلك ان تتخيل عقلية بعض هؤلاء القائمقامين والمديرين الذين يتمشون على الاسلوب القديم فلا يحسون بضرورة الاصلاحات التي يجب ان تتم في هذا العهد . . .

ولا شك انه يوجد بين القائمقامين طبقة جديدة متفهمة ولكن عملها يكاد يكون مشلولاً لانها تصطدم بعقبات لا حيلة لها بتذليلها حيث تحول الطبقة القديمة دون ظهور فضل الطبقة الجديدة ، لان في ظهور هذه هلاك تلك ، وهذا ما يجعل الطبقة الرجعية من الموظفين تتساند وتتكاتف حتى يصل تآزرها الى الوزراء انفسهم . . . !

وهذا ما حصل في الدرك بعد اصدار المرسوم (٨٥) المتعلق بالترفيع . فقد جرد خصومه كل ما عندهم من قوى لابطال هذا

المرسوم دون جدوى ... وكنا نحن من المطالبين بتعديله لا بالغائه حتى يحدث التطور تدريجياً فلا يصطدم الضباط الجدد بالقادة القدماء كما يحدث الان غالباً ... وهذا الاصطدام طبيعي ، لان الضباط الجدد وكلهم من حملة الشهادات يعتقدون انهم افهم من بعض القادة الذين لم يتوصلوا الى مراكزهم الا من وراء التمرين ... بينما الضباط القدماء يعتقدون ان المستجدين لم تتهيأ لهم بعد الخبرة الكافية وان نظرياتهم العلمية لا تغنيهم شيئاً في وظيفتهم التي تعتبر كمهنة من المهن ...

ونحن لو تركنا هذا التنافس جانباً ونظرنا الى الامر بتجرد ومن ناحيته العملية لوجدنا الضباط الجدد قد اظهروا كفاءة ودراية تامة مما يبشر باحسن النتائج في المستقبل حيث ستودع القيادة في ايديهم . نقول ذلك دون ان ننكر فضل بعض القادة القدماء الذين قام اكثرهم بواجبه خير قيام قبل جلاء الاجنبي وبعده . لولا روح الاستغلال التي ظهرت من بعضهم وكادت ان تقضي على السمعة التي اكتسبها الدرك بجهوده واعماله .

وقد ذكرنا حكاية ذلك القائد مع رئيس المخفر ، وها نحن

نقص حكاية اخرى بين احد الضباط الجدد وقائده !! فقد عين ذلك الضابط قائداً لاحد الافصال، وعلى اثر ذلك علم ان قائده قد انهى خدمة خمسة وعشرين سنة في الدرك فاراد ان يقيم له عيد يوبيله الفضي ويجمع تبرعات من رجال معيته لمشترى كأس فضية تقدم للقائد كذكرى في هذه المناسبة. ولكن الضابط قبل ان ينفذ هذه الفكرة كاشف القائد بالامر، فسأله القائد : (و ما فائدة هذا العيد وهذه الكأس الفضية ؟) ! فاجابه الضابط : (ان هذه الكأس يا سيدي ستعبر عن عاطفة الامتنان وعرفان الجميل نحوكم !) فقال القائد : (بلا كأس بلا بطيخ... انا يا ابني ما بدي هيك شي) ...

وبعد مدة اتصل ذلك القائد هاتفياً بقائد الفصيل وطلب منه ان يشتري على حسابه عشر تنكات سمن لانها مطلوبة منه كهدايا (ومثل هذه المشتريات لا تكون بثمنها الحقيقي طبعاً !) . فاجابه الضابط :(ان عشر تنكات كمية كبيرة وقد اتهم سلفي بالمتاجرة بالسمن) !!!

واليوم لقد اصبح الضابط في احدى الكتائب الاحتياطية

مبعداً عن الخدمة الفعلية ، وذلك لانه اراد ان يقدم كأساً فضية ولم يرد ان يتاجر بالسمن ...

* * *

لقد زهقت من المضحك المبكي فتركتها غير آسف ، وارتحت مدة طويلة من الصحافة والصحافيين كما ان الناس قد ارتاحوا مني ، وقضيت فترة في لبنان بعيداً عن كل هذه المشاكل الى ان لمست إنقلاباً كبيراً في اتجاه الصحافة السورية قضى على الموازين القديمة ... وكان هذا الامر طبيعياً جداً ، لان البلاد قد تطورت والافكار قد تبدلت واستيقظت الروح القومية وظهرت غايات واهداف جديدة ، ورج المجتمع السوري رجة عنيفة على اثر الجلاء ، فبرز الى الميدان الشباب الواعي المتحمس ، اما بعض السادة المتنفذين فلم يحسوا تماماً بالتطور الجديد فتمسكوا بامتيازاتهم ، وابقوا الدوائر والقوانين على ما كانت عليه في زمن الانتداب فحالوا دون التبديل الاساسي في المناهج، واذا بمعارضة قوية تظهر مستفيدة من هذا التنازع الذي اوجده الجمود .

وظهرت صحف جديدة تثير هذه اليقظة الجديدة والشعور الكامن فتلقاها الشعب بكل ترحاب لانها عبرت عن رغباته اذ جعلت تعمل معاولها لتهديم الاسلوب القديم متناولة بتهديمها بعض رؤساء الدوائر الذين خلفهم لنا عهد الاستعمار ارثاً ثقيلاً ...

وانطلقت جريدة (بردى) اول صيحة من صيحات الانطلاق فما عتمت ان سعيت الى تسلم وكالتها العامة ... لقد كانت شهور مليئة بالاحداث فان بعض الجامدين الحريصين على ان يعيشوا حياتهم بطمأنينة ودعة ، وبعض الدساسين الذين كانوا يتوهمون انهم يقومون باعمالهم متسترين صدموا صدمة قوية بهذه الجريدة التي ظهرت كانها ثورية بالنسبة للعقلية القديمة الفاسدة بينما هي تعد معتدلة في نظر كل حر شريف .

اما انا فمن المضحك حقاً ان اقلب النظر في ما مضى علي من احداث في هذه الاشهر الحافلة بالمفاجئات ! لم يترك لي اندفاع الاستاذ منير الريس صاحب (بردى) مجالاً للاندفاع . وبينما

كنت مثلاً انضايق من الجمود والتراجع وسياسة الملاينة والمساومة التي تتبعها بعض الصحف ، اذا بي احس فجأة بانني اشتغل في جريدة احتاج معها ان المس جلدي في كل وقت ...

وساقتصر في مذكراتي هذه على ذكر بعض الحوادث اللذيذة المسلية ، مبتعداً جهد طاقتي عن الاثارة التي ظهرت خطوطها في (بردى) خلال الفترة الماضية ... ولعل في ذكر هذه الاشياء تسلية ومانعاً لمن يريد ان يشتغل في جريدة معارضة مندفعة اذ يحتاج الى شيئين : اولاً ان يحسن استعمال السلاح للدفاع عن النفس ، وثانياً ان يعود نفسه على الحرمان ...

واذكر بهذه المناسبة انني اشغلت مرة في جريدة (الايام) وظيفة مندوب متجول في سنة ١٩٤٦ ، وكانت الايام وقتئذ ، كما هي اليوم ، معارضة للحكم القائم ، فعطلت ثلاث مرات خلال شهر واحد ، وكان التعطيل آخر مرة لمدة ثلاثة اشهر ، فسارعت الى تركها فوراً ، فلا اشق ولا اصعب على المندوب من ان تتعطل الجريدة التي يعمل فيها مرات متوالية ، لان الحاكمين يكونون ضده بينما تغيب الصلة التي تربطه بالشعب وهي اعداد الجريدة ...

لقد ذهبت عند اول اشتغالي ببردى الى اللاذقية ولم يكد يمضي على وجودي يومان حتى ظهر في الجريدة خبر تحت عنوان (مطايا الاستعمار يعدون مذكرة ثانية) وكان ذلك فضيحة لبعض الزعماء الذين عقدوا الاجتماع فعلاً ، فلم يكد العدد يصل الى اللاذقية حتى اضطرب المعنيون بذلك الخبر وغضبوا وتآمروا وتوثبوا واعدوا للعبد الفقير ما استطاعوا من قوة ... فطالما لا يستطيعون الانتقام من الجريدة بشكل من الاشكال ، فلينتقموا من وكيلها ، ذلك على الاقل اسهل الشرين ...

وبدأ بعض الزعانف يسألون عني وجاءني مدوب (القباء) الذي صدف انه كان موجوداً هناك يحذرني ويطلب مني ان اتوارى من المحافظة ... والقى علي محاضرة مؤداها ان القائد محمد علي بك عزمت اذا كان يتحدى المتآمرين فوراءه دبابات ومصفحات وذخيرة وجنود ، اما انا فليس ورائي ولا امامي غير ذواء الغصن الرطيب وضياع العمر القصير ...

وفات ذلك المنـدوب ان اللاذقيـة هي عرين الوطنية في الساحل وان اهلها جنود لحماية كل مناصر للقضيـة الوطنيـة ... وبالفعل ما كاد الخبر يتصل بالوطنيين هناك حتى احاطـوني بسياج من العطف وقد اراد مدير الامن العام المحترم احاطتي بسياج من الحماية ولكنني رفضت لأن الكرامة ابت علي ان اظهر بمظهر الجبن ولو ذوى الغصن الرطيب ولاعتقادي ان القوم مازحون غير جادين باعتبار اني موجود في اللاذقية (عرين الوطنيـة كما قلت) لا في (جوبة البرغال) ...

وقيل لأولئك الزعانف اني جالس في مقهى الطاحـونة الحمراء ، وكنت بالفعل جالساً فيه مع مندوب (القبساء) وتركتـه مصادفة قبل تشريفهم ليداعبوا جسم الداعي بالخناجر لا بالورود ، فعلمت انهم توجهوا ناحيـة مندوب القبساء لانهم لا يعرفـونني شخصياً وقد ظنوه اياي ، وكادوا يقدمون له تحيتهم الحاميـة لولا ان واحداً من دافعيهم يعرفنا نحن الاثنين قد اعطاهم اشارة لولاها

لحدث الالتباس ولانقلب الحادث الى رواية مضحكة تنتهي بالاعتداء على مندوب جريدة تناصرهم ...

* * *

ان الخطأ الذي يرتكب في اللاذقية هو عدم التفريق بين الشعب العلوي الجاهل البريء وبين بعض الزعماء الذين خدعوه في الماضي ، وليس المهم الان ان نأخذ بالذنوب ، بل المهم تثقيف هذا الشعب وانالته الحقوق الطبيعية التي حرم منها طيلة حقبة طويلة ، ووضعه على قدم واحدة في ميدان العلم والتقدم الاقتصادي والاجتماعي مع بقية المواطنين السوريين ... ان انتهاج هذه الخطة وحدها يمنع هذا الشعب في المستقبل من الانخداع ، وينتشله من وهدة الانحطاط التي يتردى بها الان ...

انه ليس من الحق مطلقاً ان نأخذ البريء بجريرة المذنب ، وهكذا يجب حصر النقمة على اذناب المستعمر وحدهم اما الشعب العلوي فيجب ان نقوده نحو النور كما انه من الواجب قيادة غيره من العناصر ايضاً ، فالشعب ليس مذنباً ابداً اذا كانت عصور الجهل والانحطاط قد جعلته على استعداد لكي يكون مطية

للطامعين ...

ولا ادري لماذا يخاف المسؤولون من ان يطلقوا الحريات الواسعة للشعب السوري ولماذا يقيدون حماسه واندفاعه ويؤخرون انطلاقه ! وماذا ينتظرون ان يفعل هذا الشعب يوماً ما في ميدان التقدم اذا كان محبوساً في قفص ضيق من الجهل والجمود والخوف ؟ !

واني ارى لضمان حرية هذا الشعب وزرع ثقته بنفسه ان يساهم مساهمة فعالة بادارة شؤون الدولة عن طريق انتخابات حرة واسعة يشترك فيها اشتراكاً عملياً، وان يعاد في كل شأن الى رأيه اولاً باول حتى تستقيم الامور ويعتاد الحرية التي حرم منها دهراً طويلاً !...

ان الروح الاقطاعية يجب ان تنحل شيئاً فشيئاً ويقوم مكانها جيل واع عملي منتج يساير التطور ويدرك ان أمم اوروبا لم تبلغ ما بلغته من العزة والمنعة الا بانتهاجها خطة عملية في ميدان العلوم والصناعة ! اما الشعوب الفطرية فقد وقعت في براثن الاستعمار ، وهي تحاول عبثاً التخلص منه ان لم تتخلص

اولاً من استعباد نفسها وتسير بجرأة في طريق العلم والعمل !

ان كل شيء مهيأ اليوم للوصول الى هذه الغاية وما علينا الا ان نتمشى على اسلوب مغاير للاسلوب الذي كان يتمشى عليه المستعمر ! واني لاذكر الان حديثاً جرى لي مع احد الاجانب المتشبعين بالروح الاستعمارية البشعة ! لقد قال لي : (اتعرف كم عدد نفوس سورية ؟) . فظننت انه يجهل حقيقة عدد نفوسها فاجبته على الفور : (ان سوريا تعد ثلاثة ملايين ونصف نسمة على التقريب) فاجاب متهكماً : (كلاً انها تعد خمسين فقط !!!) .

ان المستعمر لم يكن يرى ان سوريا تعد اكثر من خمسين شخصاً ، ونحن نتمنى بل نريد ان يتاح لنا القول قريباً وبكل تأكيد ان سوريا تعد اربعة ملايين كما هو عدد نفوسها في الواقع !

* * *

واني لاشعر الان بفضل الصحف المعارضة الحرة في الحث على العمل . كان المختلس في زمن الانتداب ينتظر الترفيع والمكافأة

ولم يكن احد يجرؤ على مقاومته طالما هو حاصل على رضى المنتدب ، فاصبح المختلس اليوم يفر من وجه العدالة او يقع في السجن وهذا ما يفسر ظهور كثير من الفضائح ، بينما الاختلاسات كانت موجودة قبلاً ولكن لم تكن تظهر الا نادراً فلا يتحدث بها احد ...!

ان للحرية فضلاً مهما انكر البعض وظن ان الحرية تجر الى الفوضى ...! واذكر ان احد كبار الموظفين قال لي : (ليس من حقكم ان تذيعوا الفضائح ، وتهاجموا الدوائر لان للاجنبي عيوناً ترصدنا ! وانكم بعملكم هذا تشوهون سمعة الدور الوطني).

فضحكت وقلت : (لماذا تحسب اننا نشوه سمعة العهد الوطني ولا تحسب ان المختلسين والانتهازيين هم الذين يشوهون هذه السمعة) .

والحقيقة ان بعض هؤلاء الموظفين ليسوا حريصين على سمعة تشوه ، ولا على كرامة تداس ، وانما هم حريصون على ان يقوموا باعمالهم دون رقيب ، وان لا تظهر فضائحهم للناس ، او كما قال لي احدهم :(لقد بلغت من العمر عتياً وقريباً احال على التقاعد

فلا اريد ان انهي خدمتي بتشويه سمعتي!). واحسب لو ان الحكومة تشدد في معاقبه المرتشين والذين يسيئون الاستعمال لما كان مثل هذا الموظف يخشى تشويه السمعة فقط على صفحات الجرائد، بل كان يخشى السجن ايضاً والتجريد من الحقوق !!

ان بعض الموظفين كانوا يحيطون انفسهم بهالةمن التقديس فلا يسمحون لهمسات النسيم بان تخدش خدودهم وللمسات الورود بان تجرح ايديهم ... وكان كل واحد من هؤلاء يحاول ان يوهم الناس بانه هو الوطني الذي لم يجد التاريخ بمثله وان استقلال البلاد محسوب على جهوده وتضحيته وبطولته ...

واذكر انني على اثر حوادث (٢٩) ايار، زرت احد قادة الانفصال في محافظة اللاذقية، فوجدته محيطاً احدى قدميه بالضمادات ومنتعلاً خفاً ومستحضراً عصا للتوكؤ عليها، فحسبت ان قدمه قد اصيبت بالرصاص في معركة صب الافرنسيين فيها ما صبوا من حممهم!! فسألته ما باله يربط قدمه بالضمادات! فاجابني بلهجة الظافر المنتصر الذي يحس انه قام بواجبه خير قيام: (لقد

جاهدت وهذا سبب ما تراني فيه !) . فاكبرت الرجل ، وسألته : (وما عساه يكون قد اصاب رجلك ؟) : فقال : (لقد كنت منتعلا حذاء جديداً ضيقاً في اثناء الاضطرابات، ولكثرة ما مشيت وانتقلت من مكان الى آخر فقد «لحس» الحذاء رجلي فاصاب اصابعي بجروح)!

وهكذا فقد اصبح كل من لحس الحذاء رجله بطلاً يمنن البلاد ويطلب ان تقام له التماثيل تخليداً لذكرى بطولته !!

* * *

ان بعض كبار الموظفين لم يكونوا يؤمنون بامكان جلاء الاجنبي وتوطيد الاستقلال . الا ان التيار قد جرفهم فاضطروا الى ان يترأسوا الحركات ، وانني لا اسمح لنفسي بان اتهم احداً في وطنيته ، بل لا اريد ان اتوهم مطلقاً بان احداً يتردد في خدمة امته ، ولا نريد الرجوع الى الماضي ، فالماضي يبدو كأنه بعيد جداً انما المهم ان نكون جريئين بمحاسبة من يسيء الاستعمال وان لا نختلف الاعذار ونلتمسها لان حياة الامة ومستقبلها اهم من مصلحة الافراد ومراكزهم ...

وليس من المقبول مطلقاً ان الذي صوب بالامس خناجره الى صدر الامة ان نقدم اليه اليوم طاقات من الورود، وان نربت على كتفه لا لشيء الا تمشياً مع سياسة التسامح والتناسي وغض النظر. اما الكفاءات فهي تظهر حالما يتعهد المسؤولون عن سياسة المحسوبية والالتماس والتراضي، وحالما يأخذون على عاتقهم حماية الموظف النزيه ضد اصحاب المطامع والمنافع ...

ان البعض يقولون ان ليس عندنا رجالا اكفياء يحلون محل الذين اكل الدهر عليهم وشرب. فواعجبا! اذن ماذا تفعل المدارس والجامعات؟ ولماذا يكون الرجال الموروثون من قبل نصف قرن افهم واكفأ من الناشئة التي اشرفت على الاحداث التي مرت على هذه البلاد في الحرب الكبرى الاولى والثانية وساهمت مساهمة فعالة في بناء عهد الاستقلال؟ واذن ماذا نفعل عندما يغيب الرجال الحاليون او يمنعهم كبر سنهم من العمل، وما فائدة

استقلال ليس له بناة ولا دعائم ؟

انما الحقيقة ان الرجال موجودون والشباب مستعدون ، وليس الخوف من فقدان الرجال، انما الخوف الحقيقي من التطور الذي يخشاه بعض الذين يعيشون بعقلية القرن الماضي ، ولا يعرفون ان من مصلحتهم ترك القافلة تمشي فلا يضعون امامها العراقيل ! فالضرر اذن من الانانية لا من شيء سواها ولعل المسؤولين يعلمون بان الامة التي تتعلق حياتها بحياة افراد تزول بزوال هؤلاء الافراد ، وانه من مصلحة الجميع ان تكون الامة مصنع رجال حتى يصح ان نقول مع السموأل: (اذا مات منا سيد قام سيد ...) . وهذه هي فائدة الجمهورية !

قابلت مرة محافظ حماه وكانت الضجة قائمة حول بعض الانشاءات التي يقوم بها في المدينة ، وقد اصطدم بنفوذ بعض الاشخاص وخيف ان يؤدي هذا الاصطدام الى تأخير تلك الانشاءات ! فاخذت منه حديثاً يلقي ضوءاً على الحادث وختمته بالحض على العمل . وقلت فيه انه بدلاً من ان نستعمل كلمة (سننشيء ، سنعمل) فمتى نصل الى وقت نقول فيه (انشأنا ،

وعملنا) !

ولم اقصد بهذا التعليق الاساءة الى المحافظ او التقليل من اهمية عمله ، وانما قصدت الاحراج والحض على العمل ، ودعمه صحفياً وشعبياً لكي لا يتراجع امام اصحاب الغايات ... ولكن المحافظ غضب وعد هذا التعليق تقليلاً من شأن اعماله ! وهذا ما ازعجني ، ولكنني كابرت واصررت على اتخاذ موقف المنتقد دائماً ، فخير لي ولمهنتي ان اغضب بعض الاشخاص من ان اتخذ خطة المدح الرخيص والتطبيل والتزمير لكل عمل مهما كان ضئيلاً او جليلاً !! ... لان مهمة الصحفي ، كما بينت ، هي الوقوف موقف الرصانة والحض على العمل واظهار المساوىء بغية الاصلاح لا حرق البخور فقط ...

* * *

واري انه قد آن الاوان لاتحدث شيئاً عن سيارة كنت املكها فنخلد ذكرها في عالم النكبات ! كنت مما جهزت نفسي به في بردى ان اقتنيت سيارة فورد يعود تاريخها الى ما قبل تاريخ السيارات ، ولو درى بها (فورد) لاحتج علينا اذ نبهدل اسمه

في سوريا . سيارة اذا وقفت فلا تمشي ، واذا مشت فلا تقف ، تصعد بسرعة ستين كيلومتراً في الساعة وتنزل بسرعة ثلاثمائة ! تسير بفضل عود كبريت لا ادري اين وضعه السائق من جسمها كما يعيش المريض باحتقان البروستات بفضل (النربيش) .

لقد قيل عندما اشتريتها ان صفيحة البنزين تسيرها مائة وعشرين كيلومتراً وكان ذلك صحيحاً ولكنهم لم يشيروا بانها تستهلك عن كل صفيحة بنزين عشر صفائح زيت !! تعتل في الحر فتصاب بالحمى وتلتهب التهاباً، وتعتل بالبرد فتصاب بالشلل، وضعف الهمة وانقطاع الحيل، اذا اشتد الريح ترتجف ارتجافاً وتهم بالطيران واذا سكن الهواء تصاب بانقطاع الانفاس وعسر الهضم ... اذا مشت في شارع تحدث قرقعة ، واذا وضعت في مرأب تحدث ارتباكاً وتعرقل السير اذ لا تتزحزح الا بعد جهد . تسير بقوة الدعاء لا قوة الاختراع ، ولها فضل في الدين لا ينكر اذ يلعن سائقها وركابها الشيطان الوف المرات في السفرة القصيرة ... اذا ضغط (مارشها) تحتج ، واذا ضغط (فراملها) تعاند ... اذا مشت في شارع مزدحم تعلم الكسالى الخفة والحركة يفر الناس من امامها

فراً فلا يتوانون ولا يتقاعسون ولا يتريثون . مغرمة بالحفر فاذا وصلت الى حفرة فلا تخرج منها. مقودها يشكو الضعف والهزل ودقة القلب ، فاذا ملكت زمامه تتبختر تبختراً وتعرج كالسكران تارة الى اليمين وتارة الى اليسار، وربما لذّ لها ان تسير على الارصفة مع السابلة خوفاً من الاصطدام بالسيارات ... تقفز حيناً قفزاً وحيناً تمهل تمهلاً ، آناً تغني وآناً تصفر وآناً تجعر ، وآناً تطبطب طبطبة . يلعن مالكها الجديد كل من سبقه في ملكيتها ويتنفس - كما تنفست - الصعداء عندما تنتقل الى غيره ...!

ذهبت في هذه السيارة الى الفرات والجزيرة فخرجت من دمشق شاباً واوصلتني الى الجزيرة كهلاً ، وكان الناس ينظرون اليها بدهشة لا يصدقون عيونهم ولا يعتقدون الا ان هذه السيارة قد نقلت في الطيارة وانزلت بواسطة المظلة الواقية !!!

ان الجزيرة، كما قال عنها احد الاجانب، (اوكرانيا) سوريا، ولكنها اوكرانيا مهملة ويا للاسف ! ان الجزيرة بحاجة الى اشياء رئيسية : الامن ، تحسين طرق المواصلات ، تسهيل الحياة ضمن المراكز وذلك بانشاء الشوارع والدور والاعتناء بالشؤون الصحية

والمياه والكهرباء وفتح المجاري، الاكثار من الآلات الزراعية وهذا يتوقف في الوقت الحاضر على مساعي الحكومة وفي المستقبل على نشاط الافراد . اما القول بان الجزيرة بحاجة الى رساميل كبيرة فلا معنى له ، لانه متى تمت الاصلاحات التي ذكرناها فان اصحاب الرساميل سيغريهم الربح ويتوافدون الى الجزيرة ، كما ان العمال سيؤمونها طلباً للرزق ، واملاً بالثروة، اما ان تبقى الحالة على ما هي عليه. فلا اعتقد الاان الناس يتخوفون من الجزيرة ومايشاع عنها من وجود الامراض المرزغية والآفات الطبيعية وغيرها...

ومن الطبيعي ان لا تكون الحالة سيئة الى الدرجة التي يتصورها البعض ، فاذا لم نقل ان الجزيرة جنة ، فلا نقول انها جحيم . ولكن بطء العمل يضطرنا الى التنبيه والتحذير .

ولا نغالي اذا قلنا ان امل سوريا في الناحية الاقتصادية يرتكز على مستقبل الجزيرة فهي مورد للمنتوجات الزراعية لا ينضب ، وتستطيع ان تستوعب من السكان ما يفيض عن المقاطعات السورية الاخرى الى مئات من السنين ، ويجب الا نغرق في الامل ، ولكنني اقول بصراحة ان الحكومة تستطيع ان

تحيل هذا الامل حقيقة او خيالاً !

ويريد البعض ان يلقي مسؤولية البطء او التقصير على عاتق الافراد . كلا ، فالاسباب اعمق من دلك ، والا فماذا يمنع شاباً طموحاً مدركاً نشيطاً كالاستاذ عبد القادر الميداني مثلاً من ان ينفذ ما عقد عليه من الامال ، لولا وجود اسباب تقعد بالهمم ؛ وهذه الاسباب معروفة ممن يهمهم الامر ، وهي لا تخرج عن سياسة الترضية والتقاعس، واليأس من الاصلاح الذي يدفع الى نشر الروح الانتهازية التي ترتكز على اساس نستطيع تلخيصه بهذه الجملة : (اذا كنت عاجزاً عن نفع الغير برغم ما ابذله من استعداد وجهد ، فلا اقل من ان انفع نفسي !) ؟!

ولا سبيل للوصول الى ما نرغبه في الجزيرة الا بالقضاء على روح البداوة قضاء تاماً، وذلك سهل متيسر بعكس ما يظن البعض. لقد قال لي احد كبار الموظفين الشباب في الجزيرة انه يقضى على البدو الرحل حالما يقضى على الجمل وهو الواسطة الوحيدة للارتحال في الصحراء! ولا ادري اذا كان ذلك ممكناً، ولكن طالما الجزيرة بحاجة الى الايدي العاملة الغريبة، افيكون صعباً تحويل سكانها انفسهم الى

عمال زراعيين نافعين منتفعين ! ؟

وانا لا ارى لضمان القيام بالاصلاحات السريعة في الجزيرة الا الغاء نظام التعهد ـ موقتاً ! ـ وان تقوم الحكومة نفسها بالمشاريع الضرورية اللازمة لان المتعهدين هناك يضيمون الاموال المخصصة جزافاً ولا ينفقون الا جزءاً يسيراً منها والباقي يكدسونه في جيوبهم ، ومن العبث ان نفتش عن المسئول او نفكر في وضع حد لذلك الا بالغاء نظام التعهد كما اسلفت ، وحلول الحكومة محل الافراد !

* * *

وما قلته عن الجزيرة يصح ان اقوله عن محافظة الفرات مع فارق واحد وهو ان منطقة الفرات اقرب وادعى الى التقدم لمركزها الجغرافي الممتاز ومستقبلها العظيم مما لو تحقق مشروع مد الخطوط الحديدية وتسيير القطارات في تلك المناطق وربطها بالعراق . ولعل قراء هذه الكلمة من الفراتيين سيهزون برؤوسهم ويضحكون من خيالي الخصب في المطالبة بمشاريع قد تعد خيالية بينما هناك مشاريع ممكنة ضرورية لا تنفذ ...

وبعد فانني اشعر بالاسف اذ اضطر ان اقف بالكتاب عند هذا الحد . وان تحول ازمة الورق والطباعة التي لا تزال مستحكمة برغم انتهاء الحرب دون ان يظهر الكتّاب نتاج اقلامهم كما يشتهون ويرغبون من بسطة وتوسع في البيان والتبيين . واني آسف على مذكراتي التي اضطررت الى بترها ، ولا يزال عندي منها الشيء الكثير مما قد لا تسقم قراءته ، بل ربما يحتوي على بعض ما يلذ ويفيد! ولعل ما ابقي مكتوماً انفع واغذر فائدة مما اظهرته ، وما لي الا ان اعد القارىء بأنه ربما يتيسر لي قريباً اعادة طبع هذه المذكرات مع الزيادة فيها والاضافة عليها حتى تشمل ما اريد شموله والسلام .